

سِلْسِلَةُ شُرُوحَاتٍ وَمَوْأَفَاتٍ مَعَالِيَ الشَّيْخِ صَالِحِ الْفُوزَانِ (١٧)

شَرْحُ

مَنْظُومَةِ الْأَحْسَائِيَّاتِ

أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حَسَنِ بْنِ مُشْرِفِ الْأَحْسَائِيَّ الْمَالِكِيِّ

الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ١٢٨٥ هـ

الشَّيْخُ

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ

الدَّكْتُورِ صَالِحِ بْنِ فُوزَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْفُوزَانِ

بِقَضَرِ اللَّهِ لَهُ وَلَوْ أَنَّكَ دَرَجُ السَّامِيَةِ

اِعْتَقَنِي بِهِ وَأَسْرَفَ عَلَيَّ طَبْعُهُ

د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُثْمَانَ الْمُجَلِّهِ السُّوْنِيِّ

بِقَضَرِ اللَّهِ لَهُ وَلَوْ أَنَّكَ دَرَجُ السَّامِيَةِ

مَكْتَبَةُ الْأَعْلَى الدِّهْيِيَّةِ

الْكُتُبُوت

الْبَيْتُ الدِّهْيِي

الرِّيَاضِ

شَرْحُ

مَنْظُومَةِ الْأَحْسَائِيَّاتِ

شَرُّهُ
مِنْظُومَاتُ الْاِحْسَانِيَّاتِ

ح مؤسسة التراث الذهبي للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المجلهه، سلمان جابر

شرح منظومة الإحساني، / سلمان جابر المجلهه، - الرياض، ١٤٤٠ هـ

١٣٥ ص؛ ١٧/٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١١٨٢-١-٣

أ. العنوان

١- العقيدة الاسلاميه

١٤٤٠/٢٦٧١

ديوي ٢٤٠

رقم الإيداع، ١٤٤٠/٢٦٧١

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٩١١٨٢-١-٣

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

(١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م)



مكتبة الإمام الذهبي للنشر والتوزيع

الفرع الرئيسي: حولي - شارع المئتي - مجمع البكري - ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦

فرع المصاحف، ت: ٢٢٦١٥٠٤٦ - فرع الجهراء: الناصر مول، تلفون: ٩٥٥٥٨٦٠٨

فرع الفحيحيل، البرج الأخضر - شارع الديوس - تلفون: ٩٥٥٥٨٦٠٧ - ٢٥٤٥٦٠٦٩

فرع الرياض، المملكة العربية السعودية التراث الذهبي - جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٧٧٦٥١٣٨

الخط الساخن: جوال: ٠٠٩٦٥ ٩٤٤٠٥٥٥٩



z.zahby74@yahoo.com



Imanzahby

شَرْحُ
مِنْظُومَاتِ الْأَحْسَائِيَّاتِ

أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ حَسَنِ بْنِ مُشْرِفِ الْأَحْسَائِيِّ الْمَالِكِيِّ
المتوفى سنة ١٢٨٥ هـ

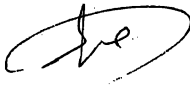
الشرح
لفضيلة الشيخ العلامة
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْ الدُّنْيَا وَطَيْعُ السَّامِرِينَ

اعتنى به وأشرف على طبعه
د. سَلْمَانُ جَابِرُ عُثْمَانِ الْمُجَاهِدِ السُّوَيْلِمِ
عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْ الدُّنْيَا وَلَاهِلُ بَيْتِهِ وَلَسَائِرُهُ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبيينا محمد وآله وصحبه وبعد:
فقد أذنت لابننا وتلميذنا فضيلة الشيخ الدكتور سلمان بن جابر بن عثمان المجلهم
بطباعة: شرح منظومة الأحسائي على مقدمة ابن أبي زيد القيرواني.
رجاء أن ينفع الله به، ويكتب لي وله الأجر.
وصلى الله على نبيينا محمد وآله وصحبه.

كتبه: د. صالح بن فوزان الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء واللجنة الدائمة



٥٩٢٢٩ / ١١١٥

مُقدِّمةُ النَّاشِرِ

الحمد لله القوي العزيز الغفار، والصلاة والسلام على نبينا محمد النبي المصطفى المختار، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، وسلم تسليماً عظيماً،
أما بعد:

فهذا شرح لنظم الشيخ العلامة الفقيه المحدث الشاعر الأديب / أحمد ابن علي بن حسن بن مشرف الأحسائي المالكي المتوفي سنة ١٢٨٥ هـ، في تسعين بيتاً لمقدمة الرسالة للإمام ابن أبي زيد القيرواني المالكي، وقد كان الشيخُ ابن مشرف رَحِمَهُ اللهُ سلفيَّ العقيدة، على منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الصفاتِ واقتفاء آثار السلفِ الصالح في العلم والعمل والدعوة، وقد عرف الشيخ أحمد بن مشرف بحسن نظمهِ، وعذوبة ألفاظهِ، وجودة اختيارهِ، وعلو كعبهِ في الأدب والنظم، وصاحب ملكة فريدة وجهد طيب في الدفاع عن عقيدة السلف الصالح، وقد قال عنه الزركلي: (فقيهٌ مالكي، كثيرُ النظم، سلفيُّ العقيدة)، وقال أيضاً: (وله منظوماتٌ في التوحيد والرد على المعطلة ومدائحُ جُمِعَتْ في مجلد باسم «ديوان ابن مشرف» مطبوع)^(١). وفي هذا الكتاب شرح لشيخنا العلامة ووالدنا الكريم صاحب الفضيلة الشيخ الدكتور/

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
بِغَفَرِ اللَّهِ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ السَّالِكِينَ

(١) انظر: الأعلام للزركلي (١/ ١٨٢-١٨٣).

لهذه المنظومة، التي نظم فيها الشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي - رحمه الله، وغفر له - مقدمة ابن أبي زيد القيرواني.

وقد قام فضيلته بشرحها يوم الثلاثاء الموافق الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول لعام ألف وأربعمائة وأربعة وثلاثين، وانتهى منه - حفظه الله - يوم الثلاثاء الموافق السادس عشر من شهر ربيع الثاني لعام ألف وأربعمائة وأربعة وثلاثين من الهجرة النبوية المباركة، في مسجد الأمير متعب بالرياض، بالمملكة العربية السعودية - حرسها الله -.

فرحم الله الامام أبا محمد ابن أبي زيد القيرواني المؤلف صاحب المقدمة، وناظمها ابن مشرف الأحسائي المالكي، وشارحها شيخنا ووالدنا العلامة الدكتور صالح الفوزان، والمعتني بها العبد الضعيف الفقير، الذي يرجو رحمة ربه وستره ومغفرته وعافيته، ورحم الله المتبرعين الذين جادوا بالتبرع الكريم، وأعد هذا الكتاب على نفقتهم الشيخ أبا عبد الرحمن مساعد بن علي الشايجي، والشيخ أبا وائل محمد بن أحمد الفرحان، وزوجته الكريمة المباركة.

ومما يشار إليه أن إعداد هذا الكتاب، وريعه والعائد من بيعه، وكل ما بذل فيه هو وقف لله تعالى، وهو مشروع وقفي من أموال وقفية، تقبل الله من الجميع، والله أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

د. سَلْمَانُ جَابِرُ عَثْمَانَ الْمُجَاهِدِ السُّوَيْلِمِ

عَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلَوْ أَدْرَكَ لِأَهْلٍ بِهِ وَلِشَايِخِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عقيدة الشيخ الإمام الحافظ / عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي زيد
القيرواني؛ كما نظمها الشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا لَيْسَ مُنْحَصِرًا عَلَى أَيْدِيهِ مَا يَخْفَى وَمَا ظَهَرَ
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَتَسْلِيمُ الْمُهَيِّمِ مَا هَبَّ الصَّبَا فَأَدَّرَ الْعَارِضَ الْمَطَرَا
عَلَى الَّذِي شَادَ بُنْيَانَهُ هَدَى فَمَا وَسَادَ كُلُّ الْوَرَى فَخَرًا وَمَا افْتَحَرَ

الشرح

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا
محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه المنظومة للشيخ ابن مشرف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ لأنه طُلبَ منه أن ينظمها،
فنظمها بنظم لذيذ منسق، فنحب أن نقرأها:

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا لَيْسَ مُنْحَصِرًا... عَلَى أَيْدِيهِ مَا يَخْفَى وَمَا
ظَهَرَ)؛ لأنه بدأ النظم بـ«الحمد لله»؛ مثل كل المؤلفات، تبدأ بـ«الحمد لله».
(ثُمَّ الصَّلَاةُ وَتَسْلِيمُ الْمُهَيِّمِ مَا... هَبَّ الصَّبَا فَأَدَّرَ الْعَارِضَ الْمَطَرَا)،
العارض، السحاب يعني؛ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾
[الأحقاف: ٢٤]، فالعارض: هو السحاب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (هَبَّ الصَّبَا): الذي هو الشرق؛ لأن الرياح الشرقية تثير السحاب وتلقحه؛ لأن الرياح أقسام، منها: ما يثير السحاب من مظهره، ومنها: ما يؤلفه ويجمعه، ومنها: ما يلحقه بالماء؛ ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، ومنها: ما يسوق السحاب في الجو إلى حيث أمره الله.

فالصَّبَا: هي الشرق؛ لأن الرياح إما شمالية، وإما جنوبية، وإما غربية، وإما صبا، وهي الشرق، وأحسن الرياح هي الصَّبَا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (عَلَى الَّذِي شَادَ بُنْيَانَ الْهُدَىٰ فَسَمًا... وَسَادَ كُلَّ الْوَرَىٰ فُخْرًا وَمَا افْتَخَرَا) على الذي ساد كل الورى، وسما، وهو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو سيد الأولين والآخرين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَسَادَ كُلَّ الْوَرَىٰ): يعني: الخلق؛ لأنه رسول الله إلى الناس كافة.

وسما: يعني: ارتفع، من السمو وهو الارتفاع؛ رفع الله قدره: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، رفع الله قدر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (شَادَ بُنْيَانَ الْهُدَىٰ): من الذي بنى الإسلام؟ هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاء به، وبينه للناس، وترك أمته عليه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَسَادَ كُلَّ الْوَرَىٰ): هو سيد الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو سيد الأولين والآخرين، سيد المرسلين والخلق أجمعين، الله فضله بهذا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمَا افْتَخَرَا): عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لم يكن يفتخر على الناس بنفسه، أو يفتخر بما أعطاه الله.

ولكنه كان يتحدث بنعم الله، فيقول: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»^(١)؛ من باب التحدث بنعمة الله، لا من باب الإعجاب بنفسه، ما افتخر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يتحدث بنعمة الله؛ لأن الله أمره بذلك: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ﴾ [الشرح: ١-٤]، هذا من نعم الله عليه.

والسورة التي قبلها -الضحى-: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۚ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۚ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۚ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَخَاوَىٰ ۖ﴾ [الضحى: ٣-٦]؛ لأن أباه مات وهو صغير.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، ضالًّا: يعني: لا تعرف، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرَىٰ مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿ضَالًّا﴾: ليس من الضلال الذي هو الكفر، لكنه ضال، لا يعرف الإيمان على التفصيل، وإن كان يؤمن بالله، ولكن تفاصيل الإيمان، وما يجب الإيمان به، هذا إنما جاءه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾: هداك إلى الإيمان، وإلى معرفة الحق.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾^(٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرُ: الذي هو فقد أباه وهو صغير، يجب إكرامه والإحسان إليه، ورحمته، والشفقة عليه، وتربيته، وحفظ ماله.

(١) أخرجه مسلم (٣) (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾؛ يعني: تستغل يتيمة وعدم وجود والده، تستغل ذلك، تتسلط عليه.

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٧-١٠]: سائل العلم الذي يسألك عن العلم لا تنهره، وتغلظ عليه، بل ابسط له وجهك، واستقبله، وأجب سؤاله، فلا تنهره وتزجره.

وكذلك سائل المال -سائل العلم وسائل المال-، إذا سألك سائل محتاج؛ إن كان معك شيء، فأعطه، وإلا فأعطه كلاماً طيباً، واصرفه صرفاً جميلاً، ولا تنهره بالقول.



نَبِيْنَا أَحْمَدُ الْهَادِي وَعِثْرَتِهِ وَصَحْبُهُ كُلُّ مَنْ آوَى وَمَنْ نَصَرَ
وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا سَمًا وَبِأَسْبَابِ الْعُلَا ظَفَرًا
لَا سِيَّمَا عِلْمُ أَصْلِ الدِّينِ إِنَّ بِهِ سَعَادَةُ الْعَبْدِ وَالْمُنَجَى إِذَا حُشِرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (نَبِيْنَا أَحْمَدُ الْهَادِي وَعِثْرَتِهِ)، أحمد: هذا من أَسْمَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، هذا قول المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ.

﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، فاسمه: أحمد، ومحمد، والهادي، والمأحي، والحاشر، إلى آخره، ذكر أَسْمَاءَهُ ابْنُ الْقَيْمِ فِي «جَلَاءِ الْأَفْهَامِ»، أو ذكر جملة منها، فهذا من أَسْمَائِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (نَبِيْنَا أَحْمَدُ الْهَادِي)؛ الهادي إلى الحق: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، الهادي: يعني: المبين، وأما الهادي بمعنى الموفق، هذا لله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، الرسول يهدي بمعنى أنه يبين الحق، ويدل عليه هداية البيان، وأما هداية القلوب، فهذه لا يملكها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَعِثْرَتِهِ)؛ يعني: قرابته، العترة هي القرابة وأهل البيت.

(١) انظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام (ص ١٧١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَصَحْبُهُ كُلُّ مَنْ آوَى وَمَنْ نَصَرَا)، لما صلى وسلم على العترة، وهم القرابة، أولاً: صلى وسلم على الرسول، ثم على عترته، ثم على أصحابه رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَبَعْدُ فَالْعِلْمُ لَمْ يَظْفَرْ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا سَمًا): إلا ارتفع قدره، ارتفع قدره بالعلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَؤُلَا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، فالعلماء لهم قدرهم، لهم مكانتهم بما آتاهم الله من العلم، فسموا به؛ يعني: ارتفعوا به على غيره؛ رفعة قدر ومكانة، وليست رفعة فخر وإعجاب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَبِأَسْبَابِ الْعُلَا ظَفَرًا)؛ ظفر بها: يعني: حصلها، وتمكن منها. فالعلم سببٌ للعلل، العلاء هو الارتفاع، ارتفاع القدر والمكانة عند الله وعند خلقه، فالعلماء لهم قدرهم ولهم مكانتهم -علماء الشريعة-، وهم ورثة الأنبياء؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(١)، ليس

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد في المسند (١٩٦/٥)، والدارمي (٣٤٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٢٢٤/٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٦٢/٢) من حديث أبي الدرداء رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ. وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَكُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ. وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ».

الحظ الوافر بكثرة الأموال والأرصدة، وإنما بكثرة العلم النافع، ولو لم يكن عندهم مال، عندهم الثروة الهائلة، وهي العلم.

وأما ثروة المال، فهذه نعمة من الله عَزَّجَلَّ ونافعة، ولكنها متاع الحياة الدنيا، وأما العلم، فهو زاد الآخرة، والباقي إذا عمل به، إذا عمل به واتبعه، فهو سبب للرفعة في الدنيا والآخرة، سبب للصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة، بخلاف الجهل؛ فإن الجهل ضلال وهلاك وتيه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لَا سِيَّاءَ عِلْمٍ أَصْلَ الدِّينِ): العلم على قسمين: علم ديني، وعلم دنيوي.

علم الصناعات والحرف والاختراعات هذا علم دنيوي، والناس بحاجة إليه، ولكنه علم حرفي؛ حرفة يستفيد منها، ويستفيد منها المجتمع، لكنه لا يعدو أن يكون حرفة في الدنيا، أما العلم الشرعي، لا، فالعلم الشرعي هو محل الشرف؛ لأنه تتركز فيه سعادة الآخرة والنجاة من النار؛ فهو الرفعة الصحيحة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إِنَّ بِهِ سَعَادَةَ الْعَبْدِ)، العلم الشرعي به سعادة العبد، سببٌ للسعادة؛ لأنه يبين لك الطريق الصحيح.

وإذا عملت به، حصلت على السعادة التي يطلبها الناس، وهي بالعلم، إذا كنت تريد السعادة، فاطلب العلم، واعمل به، تصل إلى السعادة بإذن الله.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (إِنَّ بِهِ سَعَادَةَ الْعَبْدِ وَالْمُنْجَى إِذَا حُشِرَا)، سعادة العبد، وأهم من ذلك المنجى إذا حشرا، النجاة من المحشر يوم القيامة، وأهوال يوم

القيامة، والنجاة من النار، هذا لا يكون إلا بالعلم النافع والعمل الصالح،
الذين جاء بهما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ
الْحَقِّ﴾ [الصف: ٩]، فالهدى: هو العلم النافع، ودين الحق: هو العمل الصالح،
هذه هي السعادة الصحيحة، التي تنجي من المحشر يوم القيامة.

هذه منظومة سهلة، وينبغي حفظها؛ لأنها نظمت هذه الرسالة القيمة
-رسالة ابن أبي زيد-، فحفظ الرسالة قد يكون صعباً، لكن حفظ هذا النظم
هذا سهل جداً.



بَابُ مَا تَعْتَقِدُهُ الْقُلُوبُ وَتَنْطِقُ بِهِ الْأَلْسُنُ مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّيَانَاتِ

وَأَوَّلُ الْفَرْضِ إِيْمَانُ الْفُؤَادِ كَذَا نُطْقُ اللَّسَانِ بِمَا فِي الذِّكْرِ قَدْ سُطِرَا
أَنَّ الْإِلَهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ صَمَدٌ فَلَا إِلَهَ سِوَى مَنْ لِلْأَنَامِ بَرَا
رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَيْنِ لَيْسَ لَنَا رَبٌّ سِوَاهُ تَعَالَى مَنْ لَنَا فَطَرَا

الشرح

أول واجب على العبد أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله،
فهذا أول واجب على العبد.

وهاتان الكلمتان -الشهادتان العظيمتان- هما المدخلتان في الإسلام؛
فمن نطق بهما، صار مسلماً.

وأما ما يقوله علماء الكلام: (إن أول واجب على العبد: النظر في الأدلة،
ثم بعد ذلك، إذا نظر في الأدلة الكونية والآيات، حينئذ يشهد أن لا إله إلا
الله)، هذا كلام أهل المنطق، وأهل الكلام، وأهل الجدل.

بل إن بعضهم يقولون: (إن الواجب أن يشك الإنسان)، يشك يعني:
في الرب، ثم ينظر في الآيات والأدلة، ثم بعد ذلك ينطق بالشهادة، هكذا
يقولون.

أما أهل السنة والجماعة، فيقولون: (أول واجب على العبد: شهادة أن
لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله).

والفطرة تدل على هذا بلا نظر وبلا استدلال، الفطرة تدل على هذا، ولهذا أول ما يؤمر به الصبي إذا ميز: الصلاة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ سَبْعَ»؛ وهم أبناء سبع سنين، «وَأَضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا عَشْرَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ»^(١).

فالذي يؤمر بالصلاة هذا معناه أنه يشهد أن لا إله إلا الله بالفطرة، كيف يؤمر بالصلاة قبل أن يشهد أن لا إله إلا الله، ويشهد بهذا بفطرته التي فطره الله عليها؟! فطره الله عليها؟!!

﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، فالله فطر الناس على هذا؛ فلا يحتاجون للاستدلال والشك والنظر؛ كما يقولون، هذا كلام باطل.

وهذا معنى قول المصنف: أول واجب على العبد أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولا يحتاج إلى أنه يستدل، وينظر في الأول، ويتوصل إلى العقيدة؛ إذا الفطرة ليس لها دور عندهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَوَّلُ الْفَرْضِ إِيْمَانُ الْفَوَادِ كَذَا)، لاحظ! أول الفرض، فأول الفرض: النطق بالشهادتين، لم يقل: أول الفرض: النظر. هذا رد عليهم.

أول الفرض: نطق اللسان بالشهادتين مع اعتقاد القلب؛ كما في الذكر الذي هو القرآن قد سُطِرَا؛ كما سمعتم في الآية: ﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠].

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٥)، وأحمد (٢٨٤/١١)، والحاكم (٣١١/١)، والدارقطني (٤٣٠/١) عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَوْئُودٍ يُؤَدُّ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ»، فلو تُرِكَ، ولا يتعرضون له بالتهويد أو التنصير أو التمجيس، لكانت فطرته التوحيد، لكن يصرفونه عن ذلك بتربيته السيئة، وإلا فالفطرة شاهدة لتوحيد الله عَزَّجَلَّ بدون نظر، وبدون استدلال على ذلك، فهذه المسألة مهمة جدًا.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَوَّلُ الْفَرْضِ إِيْمَانُ الْفُؤَادِ كَذًا)، الفؤاد يعني: القلب.
قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (نُطْقُ اللَّسَانِ بِمَا فِي الذِّكْرِ قَدْ سَطِرًا)، لا يكفي إيمان القلب، لا بد من نطق اللسان، ولا يكفي نطق اللسان بدون إيمان القلب، لا بد من الأمرين.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَنَّ الْإِلَهَ إِلَهٌ وَاحِدٌ)، هذا معنى لا إله إلا الله؛ فأول ما ينطق به المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، والكافر إذا أراد أن يسلم، فإنه لا بد أن ينطق بـ«لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، لا يقال له: (انظر وفكر، وانظر في الأدلة والبراهين وعلوم المنطق وعلوم الجدل، ثم بعد ذلك تقتنع ثم تعتقد)، يقولون: (انظر ثم اعتقد).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (صَمَدٌ)، صمَدٌ، الصمد: هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها؛ يعني: تقصد الخلائق بحوائجها إليه، ولا يقصدون بحوائجهم غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه الفطرة.

أما الذي يدعو غير الله، ويقصد بحوائجه غير الله - كالموتى -، فهذا منحرف الفطرة وفساد الفطرة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (فَلَا إِلَهَ سِوَى مَنْ لِلْأَنَامِ بَرًّا)، بَرًا: يعني: خلق، الباري: الخالق، وهو الله الخالق الباري، الباري هو الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ لَيْسَ لَنَا... رَبٌّ سِوَاهُ تَعَالَى مَنْ لَنَا فَطَرًا) الإله: هو الرب، الإله: هو المعبود^(١)، والألوهية: العبادة.

والرب: هو المدبر الخالق الرازق، هذا توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فهو رب السماوات السبع والأرضين السبع ومن فيهن، كلهم عبيده، وكلهم خلقه، فيجب عليهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (لَيْسَ لَنَا رَبٌّ سِوَاهُ تَعَالَى مَنْ لَنَا فَطَرًا)، فكما أنه ليس لنا ربٌّ سواه، إذاً ليس إله نعبد سواه.



(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٩٨/٢٢)، ومدارج السالكين (٣/٣٦٣).

وَأَنَّهُ مُوجِدُ الْأَشْيَاءِ أَجْمَعِهَا بِلا شَرِيكَ وَلَا عَوْنٍ وَلَا وَزَرَ

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّهُ مُوجِدُ الْأَشْيَاءِ أَجْمَعِهَا... بِلا شَرِيكَ وَلَا عَوْنٍ وَلَا وَزَرَ)؛ أنه أوجد الأشياء، وخلقها بلا شريك أعانه، ولا وزير ظاهره على ذلك، بل هو وحده خلقها بقدرته ومشيئته وإرادته، فلا يحتاج إلى معين، ولا إلى ظهير، ولا إلى وزير، فهو الذي خلق وبرأ الخلق وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذا كان كذلك، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، وأن يفرد بالعبادة دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يحيي ولا يميت، فهذا لا يستحق العبادة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّهُ مُوجِدُ الْأَشْيَاءِ أَجْمَعِهَا... بِلا شَرِيكَ وَلَا عَوْنٍ وَلَا وَزَرَ)، سبحانه، ليس له شريك، ولا عون أعانه؛ لأنه لا يحتاج إلى أحد، قادر على كل شيء، عليم بكل شيء، لا يحتاج إلى أحد في الخلق والإيجاد والتدبير.



وَهُوَ الْمُنَزَّهَ عَنْ وُلْدٍ وَصَاحِبَةٍ وَوَالِدٍ وَعَنِ الْأَشْبَاهِ وَالنُّظَرَا

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَهُوَ الْمُنَزَّهَ عَنْ وُلْدٍ وَصَاحِبَةٍ)، منزّه عن الولد، ليس له ولد، فهذا فيه رد على النصارى الذين يقولون: (المسيح ابن الله)، ورد على المشركين الذين يقولون: (الملائكة بنات الله).

الله ليس له ولد، لا ذكر ولا أنثى؛ لأن الولد إنما يكون من صفات البشر الفقراء المحتاجين، فالإنسان بحاجة إلى الولد ليساعده، وليتولاه إذا مرض أو كبر، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه غني: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ أَلْفَنِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، فليس بحاجة إلى الولد، إنما هذا من خصائص البشر.

ثم أيضًا: من أين يكون له الولد، وهو ليس له زوجة، ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحِبةٌ﴾؟ يعني: ليس له زوجة، من أين يأتيه الولد بدون زوجة؟! تعالى الله عن ذلك.

﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَحِبةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]، فهو سبحانه ليس له زوجة، فكيف يقال له ولد؟!

هذا من طبائع البشر؛ ليس هناك ولد إلا بزوجة، بدون زوجة لا يكون لك أولاد، فكيف ينسبون لله الولد، وهو ليس له صاحبة؟!

﴿أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾: يعني: من أين يكون له ولد.

﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾: يعني: زوجة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: ليس هناك شيء في هذا الكون إلا والله خلقه، فكيف يكون مخلوقه ولدًا له وشريكًا له؟! تعالى الله عن ذلك.

فهذا فيه برهان من ناحيتين:

من ناحية: أن الله ليس له صاحبة؛ يعني: ليس له زوجة؛ إذا كيف يأتيه الولد؟!!

ومن ناحية: أنه خالق كل شيء، فكيف يكون المخلوق شريكًا للخالق، تعالى الله عن ذلك؛ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَهُوَ الْمُنَزَّهُ عَنْ وُلْدٍ وَصَاحِبَةٍ وَوَالِدٍ)، وعن الوالد، منزّه عن الوالد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ (٣)﴾ [الإخلاص: ١-٣]؛ يعني: لا بداية له ولا نهاية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا﴾ [الإخلاص: ٤]؛ يعني: مشابهًا، ﴿أَحَدٌ﴾: لا يشابهه أحدٌ من خلقه.

هذه سورة الإخلاص، التي تعدل ثلث القرآن؛ لأنها تضمنت توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(١).

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣، ٦٦٤٣، ٧٣٧٤) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالَّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالنُّظَرَا)، وتنزه عن الأشباه والنظرا:
لا يشبهه شيء، ولا يماثله شيء؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَضَرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؛ يعني: الأشباه والنظرا؛
﴿فَلَا تَضَرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤]، فليس له
شبيه، وليس له نظير، وليس له مثيل، وليس له ظهير ولا وزير، ليس له ولد،
ولا زوجة، ولا والد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



لَا يَيْلُغُنْ كُنْهَ وَصَفِ اللَّهِ وَاصِفُهُ وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا مَنِ افْتَكَرَ

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (لَا يَيْلُغُنْ كُنْهَ وَصَفِ اللَّهِ وَاصِفُهُ)، لا يحيط أحدٌ بصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كُنْهَ: يعني: كيفية الصفة.

الصفات معلومة المعنى، فالعليم معناه: الذي يعلم الأشياء، والبصير معناه: الذي يبصر الأشياء، الحي: معناه الذي لا يموت.

فمعانيها معلومة، وأما كيفيتها، فمجهولة لنا، لاندرکها، فهذا الفرق بين المعنى والكيفية؛ المعنى معلوم، والكيفية مجهولة.

ولهذا لما سئل الإمام مالك رَحْمَةُ اللَّهِ؛ قال له رجل: (يا أبا عبد الله! ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟)، فأطرق مالك رَحْمَةُ اللَّهِ حتى علت له الرضاء -يعني: العرق-؛ من خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن هذا سؤال لا يليق بالله، ثم رفع رأسه، فقال: يا هذا! «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»^(١)، «الاستواء معلوم؛ يعني: معنى الاستواء العلو على العرش معلوم، «وَالْكَيفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيْمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ»؛ يعني: عن الكيفية؛ لأن الرجل يقول: (كيف استوى؟)؛ الكيفية مجهولة، «وَمَا أَرَاكَ إِلَّا رَجُلًا سَوِيًّا. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥)، وفي الاعتقاد (ص ١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٠)، وفي العلو (ص ١٣٩).

المَجْلِسِ»^(١)، فلا يجوز السؤال عن الكيفية: كيف استوى على عرشه؟ كيف ينزل إلى السماء الدنيا؟ هذا لا نعلمه، الله على كل شيء قدير، هو قال: (إنه استوى)، نقول: نعم، استوى على العرش.

الأشاعرة^(٢) وعلماء الكلام يقولون: (استوى بمعنى: استولى، استولى على العرش)، وهذا معناه: أنه كان قبل ذلك غير مستولٍ على العرش، وأنه استولى عليه بعد مغالبة مع غيره، استولى على العرش، استوى يعني: استولى. فالله مستول على الأشياء كلها بمعنى أنه مالکها، ليس خاصاً بالعرش، الله مستول على كل شيء، يملك الأشياء كلها، وليس هذا خاصاً بالعرش، إنما الذي اختص بالعرش: الاستواء عليه، فهذا الذي اختص بالعرش؛ أن الله استوى عليه.

كيف استوى عليه؛ قائماً أو جالساً أو ماذا؟ هذا لا نسأل عنه، لا يجوز لنا أن نسأل عنه، استوى على العرش، الله على كل شيء قدير.

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٠٤ - ٣٠٥)، وفي الاعتقاد (ص ١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٢٥)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ١٠٠)، وفي العلو (ص ١٣٩).

(٢) نسبة إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم الأشعري، ولد سنة ستين ومائتين، نشأ على مذهب المعتزلة، وتلمذ على يد أبي علي الجبائي ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلاب وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلى مذهب أهل الحديث وانتسب للإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة والجماعة: الإبانة، والموجز، ورسائل الثغر، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قال الذهبي: ويقال بقي إلى سنة ثلاثين وثلاثمائة. اهـ.

انظر: تاريخ بغداد (١١/ ٣٤٦)، ووفيات الأعيان (٣/ ٢٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٠٣)، والبداية والنهاية (١١/ ١٨٧).

نؤمن أن الله ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر؛ كما تواتر الحديث بذلك^(١)، ونكل كيفيته.

لا نقول: كيف ينزل إلى السماء؟ هل ينزل بذاته؟ كيف ينزل عند ناس دون آخرين؟ كيف الليل يختلف باختلاف البلدان، ثلث الليل يختلف؟

نقول: كل هذه أسئلة لا قيمة لها، الله على كل شيء قدير، الله هو الذي خلق الزمان، وهو القادر، وهو الذي خلق الليل والنهار، وهو القادر على أن ينزل كيف يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلا نسأل عن كيفيات الصفات، هذه قاعدة عامة: أننا نؤمن بها ونعرف معناها، ولا نعلم كيفيتها، نكلها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا مَنِ افْتَكَرَ)، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، هو أعلم بنفسه سبحانه وبغيره.

أما نحن، فنعلم شيئاً، ونجهل أشياء كثيرة، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه يعلم كل شيء، يعلم ما يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونحن لا نعلم ذلك.



(١) حديث النزول رواه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». هذا لفظ البخاري.

وَأَنَّهُ أَوَّلُ بَاقٍ فَلَيْسَ لَهُ بَدْءٌ وَلَا مُنْتَهَى سُبْحَانَ مَنْ قَدَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّهُ أَوَّلُ بَاقٍ فَلَيْسَ لَهُ... بَدْءٌ وَلَا مُنْتَهَى سُبْحَانَ مَنْ قَدَرَا) هذا كما في الآية: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «أَنْتَ الْأَوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ - يعني: فوق المخلوقات -، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ، دُونَكَ شَيْءٌ»^(١).

فلسنا بحاجة إلى تفسير المؤولة لهذه الآية، فقد فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو أعلم بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتفسير إذا جاء عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يجب قبوله، والإيمان به؛ لأنه أعلم بربه سبحانه وما يليق به.



(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَيِّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَالْكَلامُ لَهُ فَرْدٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مَا أَرَادَ جَرَى

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (حَيٌّ): ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، هو الحي لا يموت سبحانه، ولا ينام، لا تدركه سِنَّةٌ - وهو بداية النوم -، ولا نوم - وهو النوم المستغرق -؛ من كمال حياته.

لا يموت، لا ينام، لا تدركه سِنَّةٌ، هذا من كمال حياته سبحانه، وإنما هذه من عوارض حياة البشر المخلوقات، التي تموت بعد أن كانت حية.

والبشر ينام، والبشر ينعس؛ لأنه ناقص، حياته ناقصة، أما حياة الله جَلَّوَعَلَا -، فهي كاملة؛ ﴿الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، أما غيره من الأحياء، فهم يموتون؛ إما موتاً أكبر بمفارقة الروح للجسد، وإما موتاً أصغر بالنوم، بمفارقة الروح للبدن في النوم، هذه مorte صغرى، كلها منفية عن الله جَلَّوَعَلَا، حياته كاملة.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (حَيٌّ عَلِيمٌ): يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. أما نحن، فنعلم أشياء يسيرة، ونجهل الأكثر، أما الله جَلَّوَعَلَا، فعلمه محيط بكل شيء، والخلق علمهم قاصر.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (قَدِيرٌ): يقدر على ما شاء وعلى ما أراد سُبْحَانَهُوَعَلَى، لا يعجزه شيء، أما نحن، فقدرتنا محدودة مهما كنا، مهما كان البشر، لو كان

من الشجعان من الملوك، من الرؤساء، من... من... من العلماء، قدرتهم محدودة.

أما قدرة الله جَلَّ وَعَلَا تامة لا يعجزها شيء، على كل شيء قدير، على كل شيء، لا أنه يقدر على بعض الأشياء ويعجز عن بعضها، على كل شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَالْكَلَامُ لَهُ): من صفاته: الكلام؛ فهو يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكلام يسمعه من شاء من خلقه، سمعه جبريل، سمعه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيسمعه من شاء من خلقه.

في يوم القيامة يكلم الله الناس، ويخاطبهم واحداً واحداً، وكلامه جَلَّ وَعَلَا يليق بجلاله، ليس مثل تكلم المخلوق أو كلام المخلوق كسائر صفاته، بخلاف الجهمية^(١) والمعتزلة^(٢) والأشاعرة، الذين ينفون الكلام عن الله،

(١) هم أتباع الجهم بن صفوان أبي محرز الراسبي، مولا هم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية هلك في زمان صغار التابعين، وقد زرع شراً عظيماً، وهو رأس في التعطيل، قُتِل سنة ١٢٨ هـ، قتله سَلَمُ بن أحوز. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/٨٦)، والفرق بين الفرق (ص ١٩٩)، وميزان الاعتدال للذهبي (٢/١٥٩)، والتعريفات للجرجاني (ص ١٠٨)، وفتح الباري (٣٤٥/١٣)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٥٩٠).

(٢) هي إحدى الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذاً في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن من مجلسه، وانضم إليه عمرو ابن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم وإنكارهم القدر فيها.

وقد افرقت المعتزلة إلى فرق شتى يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل =

ويقولون: (نزه الله، هذه من صفات المخلوقين)، يقولون: (هذه الصفات -السمع والبصر والكلام- هذه من صفات المخلوقين، فإذا أثبتنا، فمعناه أننا شبهنا الله بخلقه)!

نقول لهم: كذبتهم وجهلتهم؛ فإن صفات الله تليق به، وصفات المخلوقين تليق بهم، ولا تشابه بينها أبداً، فلا يلزم من إثبات الصفات إثبات التشبيه. والفاصل في هذا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، نفى عن نفسه المماثلة، وأثبت لنفسه السمع والبصر، والمخلوقون عندهم سمع، وعندهم بصر، فدل على أن سمعه وبصره وسائر صفاته ليست كسمع وبصر المخلوقين وصفات المخلوقين، حتى يلزم التشبيه؛ لا يشبهه شيء، لا في ذاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم شبهوا أولاً، ثم عطلوا ثانياً.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (بَصِيرٌ): يبصر كل شيء؛ فلا يخفى عليه شيء من خلقه، يبصر دبيب النمل الأسود على الصفا الأسود في ظلمة الليل، لا يخفى عليه شيء سبحانه في الأرض ولا في السماء، لا يحجب بصره شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يبصر الأشياء، فيراها سبحانه، لا تخفى عليه؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، سبحانه يرى، يبصر حركات الأجنة في

=السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة. انظر: الملل والنحل (١/ ٣٠ - ٣٢)، والفرق بين الفرق (ص ١٨، ٩٣، ٩٤)، والبدء والتاريخ (٥/ ١٤٢)، وسير أعلام النبلاء (٥/ ٤٦٤)، ووفيات الأعيان (٦/ ٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص ٥٣٧-٥٣٩).

بطون أمهاتها، يبصر جريان الأغذية في العروق، يبصر كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يحجب بصره شيء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (عَلِيمٌ): صيغة مبالغة؛ أي كثير العلم، فهو سبحانه يعلم كل شيء، محيط علمه بكل شيء.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (مَا أَرَادَ جَرَى): ما أراد الله، فلا بد أن يحصل، أما نحن نريد أشياء وأشياء لا تحصل، نعجز عنها، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فإنه ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، إرادته سبحانه تقع إذا أراد شيئاً؛ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، في الحال بمجرد قوله: ﴿كُنْ﴾ يوجد الشيء الذي أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه لا يعجزه شيء، هذه الإرادة الكونية، وأما الإرادة الشرعية، فهي أوامره ونواهيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده.



وَأَنَّ كُرْسِيَّهُ وَالْعَرْشَ قَدْ وَسَعَا كُلَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ إِذْ كَبُرَا

الشرح

السموات السبع - كما في الآيات - سبع سماوات، كل سماء فوق التي تحتها، سبع سماوات طباقاً، فوق السماوات: البحر؛ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، بحر عظيم محيط بالكون^(١)، ثم فوق البحر: الكرسي؛ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فالكرسي أوسع من السماوات، محيط بها^(٢)، وفوق الكرسي: العرش، وهو أعظم المخلوقات،

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٩٨٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ١٠٤٧)، والتوحيد لابن خزيمة (٢/ ٨٨٥)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٣٩٦)، والديلمي في الفردوس (٤/ ٧٨)، وابن قدامة في إثبات صفة العلو (ص ١٠٥) عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ». وَعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكَثُفَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ مِثْلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَاللَّهُ تَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٠٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ١٠)، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧)، والذهبي في العلو (ص ١١٧)، ولفظه: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْفَيْتٍ فِي ثُرْسٍ».

محيط بالكُرسي^(١) وبالمخلوقات^(٢)، هذا العرش، عرش الله جَلَّوَعَلَا، وهو فوق العرش جَلَّوَعَلَا يستوي على العرش^(٣)، استوى أي: علا وارتفع على العرش جَلَّوَعَلَا^(٤).

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الطبري في تفسيره (٥٣٩/٤)، وأبو الشيخ في العظمة (٦٣٦/٢) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولفظه: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أَلْقَيْتَ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ».

(٢) كما في حديث الأبطح الذي أخرجه أبو داود (٤٧٢٦)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٥٢/١)، والطبراني في الكبير (١٢٨/٢)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٥٦/٢)، وابن عبد البر في التمهيد (١٤١/٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦١/١)، وابن أبي شيبة في العرش (ص ٥٧)، والآجري في الشريعة (٣٠٧)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣٩٤/٣) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جُهِدْتَ الْأَنْفُسَ، وَضَاعَتِ الْعِيَالُ، وَتُهَكَّتِ الْأَمْوَالُ، وَهَلَكَتْ الْأَنْعَامُ، فَاسْتَسْقَى اللَّهُ لَنَا، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا تَقُولُ؟» وَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحْكُمُ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ، إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَآوَاتِهِ هَكَذَا. وَقَالَ بِأَصَابِعِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَطُّ بِهِ أَطِيطُ الرَّحْلِ بِالرَّكِيبِ».

(٣) كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (٢٧٩٠) وفيه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفَرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ».

(٤) قَالَ الْأَخْفَشُ: (استوى أي علا، ويقول: استويت فوق الدابة، وعلى ظهر الدابة، أي: علوته). انظر: تهذيب اللغة (٨٥/١٣)، والصحاح (٢٣٨٥/٦)، ولسان العرب (٤١٤/١٤).



= قال أبو العالية الرياحي: ﴿أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ ارتفع، وقال مجاهد: ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ علا على العرش، انظر: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب (٢٢) قبل حديث (٧٤١٨)، وتفسير الطبري (١/ ١٩١-١٩٣)، وتغليق التعليق (٥/ ٣٤٤).

وجاء في الدرر السنية (١/ ٥٠٤): (قال النضر بن شميل - وكان ثقة مأموناً في علم الديانة واللغة - : حدثنا الخليل وحسبك بالخليل قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي وكان من أعلم من رأيت فإذا هو على سطح فسلمنا عليه فردّ السلام وقال: استووا، فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال، فقال لنا أعرابي إلى جانبه: إنه أمركم أن ترتفعوا، فقال الخليل: هو من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ فصعدنا إليه).

وَلَمْ يَزَلْ فَوْقَ ذَاكَ الْعَرْشِ خَالِقُنَا بِذَاتِهِ فَاسْأَلِ الْوَحْيَيْنِ وَالْفِطْرَا

الشرح

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَلَمْ يَزَلْ فَوْقَ ذَاكَ الْعَرْشِ خَالِقُنَا بِذَاتِهِ)، بذاته، فاستوى على العرش بذاته، هذا رد على الذين يقولون: (استولى على العرش بقدرته)، وأما هو عندهم - تعالى الله - يقولون: (هو في كل مكان، لا يختص به مكان)، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!

عندنا صفتان لله: العلو، والاستواء على العرش.

العلو: صفة ذاتية لله عَزَّجَلَّ، لا يزال عالياً فوق مخلوقاته بذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، له العلو المطلق: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، كلها نثبتها لله. أما المعطلة، فإنما يثبتون علو القهر والقدر فقط، ولا يثبتون علو الذات، تعالى الله عما يقولون!

والعلو صفة ذاتية ملازمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لا يزال عالياً على خلقه، على مخلوقاته، صفة ذاتية ملازمة لذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وعلا جَلَّوَعَلَا بجميع أنواع العلو - علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر -، لا كما يقوله المؤولة: (له علو قدر وعلو القهر فقط، دون علو الذات).

وقد دلت على العلو أدلة كثيرة، منها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجارية: «أَيْنَ اللَّهُ؟» فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «أَعْتَقَهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، واحد من الصحابة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أراد أن يعتق جارية، فذهب بها إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يعتقها؛ ليختبرها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لها: «أَيْنَ اللَّهُ؟» فَقَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «أَعْتَقْتُهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»^(١)، فدل على أن من أثبت أن الله في السماء أنه مؤمن، وأن من نفى ذلك أنه ليس بمؤمن -نسأل الله العافية!-، «أَعْتَقْتُهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

﴿ءَأْمَنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾^(١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿[الملك: ١٦-١٧]، كرر هذا: ﴿مَن فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: في العلو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمراد بالسماء هنا: العلو، السماء يطلق، ويراد به العلو المطلق، ويطلق، ويراد به السماوات المبنية، السبع الطباق، المراد هنا: العلو.

وقد ألف شيخ الإسلام الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا سماه: (العلو للعلي الغفار)^(٢)، أورد فيه كثيرًا من الأدلة على علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق مخلوقاته، وهو كتاب جليل، وهو مطبوع -ولله الحمد- ومتيسر.

وأما الاستواء: فهو صفة فعلية، يفعله إذا شاء سبحانه، ليس بدائمًا، يفعله، إذا شاء مثل سائر أفعاله.

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) كتاب (العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها)، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايِمَاز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: طبعته مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ١.

ولهذا لما ذكر أنه خلق السماوات والأرض، قال: ﴿ثُمَّ﴾، ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فرتب الاستواء على العرش بـ﴿ثُمَّ﴾ على خلق السماوات والأرض.

أما العلو، فهو دائم، وأما الاستواء، فهو يفعلُه إذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فيجب الفرق بين هذا وهذا، وكلاهما -العلو والاستواء- بذاته سبحانه.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَاسْأَلِ الْوَحِيْنَ وَالْفِطْرَا)، اسأل الوحيين: الكتاب والسنة؛ فيها الأدلة على علو الله على مخلوقاته واستوائه على عرشه، والكتاب والسنة مملوءان من هذه الأدلة.

ثم اسأل الفطر، الفطرة تدل على هذا، أنت لما تسأل الله، إلى أين تتجه؟ العوام الذين لم يتعلموا العقيدة ولم يدرسوها إلى أين يتجهون إذا دعوا الله؟ أليسوا يتجهون إلى السماء؟ ويرفعون أبصارهم إلى السماء، ويرفعون أيديهم إلى السماء، وهم لم يتعلموا، ولم يدرسوا العقيدة، ولم يتخرجوا من كلية، ولا من شيء، لكن فطرتهم هكذا، فطرتهم دلتهم على هذا، فطرة الله جَلَّ وَعَلَا، هذه الفطرة، فهم يعرفون أن الله في السماء بفطرتهم، ولو لم يتعلموا، (فَاسْأَلِ الْوَحِيْنَ وَالْفِطْرَا)، هذا معناه.



إِنَّ الْعُلُوَّ بِهِ الْأَخْبَارُ قَدْ وَرَدَتْ عَنْ الرَّسُولِ فَتَابِعْ مَنْ رَوَى وَقَرَأَ
فَاللَّهُ حَقٌّ عَلَى الْمُلْكِ اخْتَوَى وَعَلَى الدَّ عَرْشِ اسْتَوَى وَعَنِ التَّكْيِيفِ كُنْ حَذِرًا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ الْعُلُوَّ بِهِ الْأَخْبَارُ قَدْ وَرَدَتْ)، وردت من القرآن والسنة، ومن يكذب القرآن والسنة؟ لا يكذبها إلا كافر - والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَتَابِعْ مَنْ رَوَى وَقَرَأَ)؛ تابع من روى الأحاديث في العلو، وقرأ الأحاديث، تجد عندهم العلم بذلك؛ بما ورد عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوى.

كيف نترك الأحاديث المعصومة التي جاءت عن الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، ونأخذ بقواعد المتكلمين وأفكار المتكلمين إلا من انتكس قلبه؟! نسأل الله العافية!

كيف نلتفت إلى الشبهات، ونترك البراهين الواضحة من القرآن والسنة؟!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَعَنِ التَّكْيِيفِ كُنْ حَذِرًا)، لا تقل: كيف استوى؟ كيف علو الله على مخلوقاته؟ كيف، كيف، لا تسأل عن هذا، هذا لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا مدارك للعقول في ذلك؛ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فَاَمِنْ، وفوض الكيفية، أما المعنى، فلا تفوضه، المعنى معروف؛ كما قال الإمام مالك: «المعنى معروف».

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وعن التَّكْيِيفِ كُنْ حَذِرًا)؛ يعني: احذر أمرين: التأويل والتكييف، احذرهما.

التأويل باطل، والأدلة على ظاهرها، ولا تحرف، والتكييف هذا لا نعلمه، محجوب عنا، التكييف محجوب عنا، لا نعلم كيفية أسماء الله وصفاته؛ لأننا عندنا علم قاصر عن الله؛ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].



وَاللَّهُ بِالْعِلْمِ فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ لَا يَخْفَاهُ شَيْءٌ سَمِيعٌ شَاهِدٌ وَيَرَى

الشرح

الله جَلَّوَعَلَا يعلم كل شيء، لا يخفى عليه شيء، والله يبصر كل شيء، لا يخفى عليه شيء، سميع: يسمع كل شيء، لا يخفى على سمعه شيء، كامل الصفات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاللَّهُ بِالْعِلْمِ فِي كُلِّ الْأَمَاكِنِ)، الله في كل الأماكن بعلمه، فهو فوق السماوات، ويعلم كل شيء، يعلم ما في الأرض، فعلمه في كل مكان، وأما ذاته، فهي فوق مخلوقاته؛ عالٍ على عرشه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥٠]، علمه محيط بكل شيء، وبصره محيط، وسمعه محيط سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ففرق بين العلم والذات؛ علمه في كل مكان، وأما ذاته، فهي فوق مخلوقاته، وعلى عرشه استوى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا جمع بينهما، قال: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٩٧]؛ يعني: كونه على العرش مستوياً فوق مخلوقاته لا يمنع هذا؛ أنه يعلم ما في الأرض، وما في الخفايا، وما في الصدور، وما في القبور، يعلم كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَا يَخْفَاهُ شَيْءٌ سَمِيعٌ شَاهِدٌ وَيَرَى)، شاهد: يشاهد الأشياء، ويراهها سبحانه، لا تخفى عليه، لا تمنعه الحجب، ولا الأستار، ولا القصور، يراها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الله جَلَّ وَعَلَا شهيد علينا؛ ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالٍ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، مع هذا كل شيء مكتوب في اللوح المحفوظ، مع علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به.



وَأَنَّ أَوْصَافَهُ لَيْسَتْ بِمُحَدَّثَةٍ كَذَلِكَ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى لَمْ تَذْكُرْ

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ أَوْصَافَهُ لَيْسَتْ بِمُحَدَّثَةٍ... كَذَلِكَ أَسْمَاؤُهُ الْحُسْنَى لَمْ تَذْكُرْ) فأسماؤه وصفاته لازمة لذاته سبحانه، ليست محدثة.

هذا فيه رد على المعطلة الذين يقولون: (نحن لا نثبت الأسماء والصفات أزلية؛ لأننا لو أثبتنا في الأزل، فإننا نجعل الله شريكاً معه، ولكنه أوجد أسماءه وصفاته بعد ذلك؛ لئلا تشاركه في القدم)، هل هذا يقوله عاقل!!؟

الله جَلَّ وَعَلَا بأسمائه وصفاته أزلي، ليس له صفة حادثه، ولا سمع حادث، ولا بصر حادث، ولا يلزم من قدم أسمائه وصفاته أن تكون شريكة له في الأزل؛ لأنه بذاته وأسمائه أزلي، وأسماءه وصفاته ليست غيره، حتى يقال: (إنها شريكة له)، من يقول هذا!!؟

أنت الآن -والله المثل الأعلى- لك سمع، ولك بصر، ولك عقل، هل معنى هذا أن هذه الأشياء غيرك، وأنها مشاركة لك؟ لا، لا يقول هذا عاقل، هذه لازمة للذات، ليست شيئاً آخر حتى تشاركه، فهو بأسمائه وصفاته أزلي قديم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم تحدث له الأسماء والصفات.

يقولون: (نخشى من تعدد القدماء، لو أثبتناها أزلية، يلزم على هذا تعدد القدماء، والله ليس له شريك)، يا سبحان الله! هل أسماءه وصفاته شيء آخر حتى تشاركه!!؟

وَأَنَّ تَنْزِيلَهُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ كَلَامُهُ غَيْرُ خَلْقٍ أَعْجَزَ الْبَشَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ تَنْزِيلَهُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ... كَلَامُهُ غَيْرُ خَلْقٍ أَعْجَزَ الْبَشَرَا)، فمن صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الكلام؛ أنه يتكلم متى شاء، إذا شاء، بما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالكلام صفة فعلية، يفعلها إذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، وإجماع أهل الملة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عاب آلهة المشركين؛ أنها لا تتكلم، ولا تنطق؛ فالذي لا يتكلم لا يكون ربًّا ولا إلهًا؛ لأنه لا يأمر، ولا ينهى، ولا يدبر إلا بالكلام، ولهذا فإن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تحدى عباد التماثيل، فقال: ﴿فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، تحداهم بذلك؛ ﴿فَسَلُّوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾.

قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ٦٥ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ٦٦ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[الأنبياء: ٦٥-٦٧].

قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾: إذا كيف تعبدونهم وهم لا ينطقون؟! فأقام الحجة عليهم.

وكذلك لما اتخذ بنو إسرائيل العجل الذي صاغه لهم السامري من الذهب -حلي استعاروها من القبط-؛ لأنهم خرجوا من مصر، فلما هلك فرعون والذين معه، ضاقت حيلتهم بهذا الذهب؛ ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، ماذا يصنعون بها؟

جاءهم السامري - قبحه الله -، فأخذها وصاغها على صورة عجل، جعله مجوفاً يدخله الهواء من جانب، ويخرج من الجانب الآخر، فيكون له صوت؛ ﴿لَّهُ خَوَارٌ﴾ [طه: ٨٨]؛ يعني: من الهواء الذي يدخل فيه، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]، نسأل الله العافية!

فعبدوه في غياب موسى عَلَيْهِ السَّلَام لموعد ربه؛ لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَام ذهب لموعد الله له؛ أن يعطيه التوراة، فذهب، واستخلف هارون عَلَيْهِ السَّلَام، هارون أنكر عليهم، لكنهم قالوا: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِيفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ﴾؛ يعني: من بعد ذهابه؛ ﴿مِّن حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨]. الله جَلَّ وَعَلَا يَبْنِي أن هذا لا يصلح في الآلهة؛ لأنه لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلاً.

وفي الآية الأخرى في سورة طه: ﴿أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]، ﴿أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾: إذا كلموه، لا يجيبهم، فهذا باطل، ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فدل على أن الذي لا يتكلم لا يصلح أن يكون إلهاً، هذا برهان واضح، ومع هذا عميت بصائرهم -والعياذ بالله- ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]؛ عميت بصائرهم.

وفي النهاية جاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ غضبان، وألقى الألواح - ألواح التوراة -، فتكسرت من شدة الغضب، وأخذ برأس أخيه يحجره إليه من الغضب، ثم اعتذر أخوه إليه: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿[الأعراف: ١٥٠-١٥١].

فهذا العجل لا يتكلم، ولا يجيب من سألته، ولا ينفع، ولا يضر، فكيف يتخذ إلها؟!!

فأخذه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال للسامري: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَيَّ إِلَهَكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾؛ أتلفه، ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ [طه: ٩٧-٩٨]: الله جَلَّ وَعَلَا.

فهذا برهان واضح على أن الأصنام كلها الجمادات أنها لا تعبد؛ لأنها لا تتكلم، ولا تدبر، ولا تأمر، ولا تنهى.

فهذا دليل على وصف الله جَلَّ وَعَلَا بأنه الإله الحق؛ لأن له صفات الكمال، ومنها الكلام؛ أنه يتكلم جَلَّ وَعَلَا، ويأمر، وينهى بكلام يسمع، يتكلم بكلام يسمع، ويكلم من شاء؛ كما كلم آدم، وكلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسُمي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلم الله؛ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؛ كلام يسمع.

والجهمية نفت وصف الله بالكلام كسائر الصفات نفوها، يقولون: (لأن هذه الصفات للمخلوقين، ومنها الكلام، المخلوق يتكلم، فإذا أثبتنا أن الله يتكلم، شبهنا الله بالمخلوقين - بزعمهم -، هذا من باب التنزيه).

ولم يعلموا أن هناك فرقاً بين صفات الخالق وصفات المخلوقين، ومنها الكلام، صفات الخالق تليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصفات المخلوقين تليق بهم؛ فلا تشابه بينها، من شبه الله بخلقه، فقد كفر.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فلا تشابه، نفى عن نفسه التشبيه، وأثبت له الصفات، فدل على أن إثبات الصفات لا يسمى تشبيهاً؛ لأنه يليق بالله، ولا يشبه صفات المخلوقين.

الجهمية والمعتزلة نفوا كلام الله، والأشاعرة جمعوا بين هذا وهذا - بين كلام الجهمية وكلام المعتزلة -، وأثبتوا لله أن الكلام صفة قائمة بذاته قديمة، يعبر عنها جبريل، أو يعبر عنها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا القرآن وهذه التوراة هذه عبارة أو حكاية عن كلام الله، ويسمونها «الكلام النفسى»، وأما الكلام الذي نقرؤه في المصاحف، فهذا ليس كلام الله، هذا تعبير عن كلام الله، عبر به جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، وعبر به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا مذهب الأشاعرة؛ فلا هم مع هؤلاء، ولا هم مع هؤلاء، لاهم مع أهل السنة، وأثبتوا الكلام لله حقيقة، ولا هم مع الجهمية والمعتزلة، فنفوا الكلام عن الله، صاروا بين بين، على باطل.

ولهذا لما تبنى المأمون العباسي^(١) هذا المذهب الخبيث بسبب أن جلساءه ومستشاريه كانوا من المعتزلة، فأمره أن يحمل الناس على هذا، وأن يلزمهم

(١) هو الخليفة، أَبُو الْعَبَّاسِ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَارُونَ الرَّشِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمُهَدِّيِّ ابْنِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ الْعَبَّاسِيِّ. وُلِدَ: سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَةٍ. وَقَرَأَ الْعِلْمَ، وَالْأَدَبَ، وَالْأَخْبَارَ، وَالْعَقْلِيَّاتِ، وَعُلُومَ الْأَوَائِلِ، وَأَمَرَ بِتَعْرِيبِ كُتُبِهِمْ، وَبِالْعَمَلِ الرَّصَدَ فَوْقَ جَبَلِ دِمَشْقَ، وَدَعَا إِلَى =

بأن يقولوا: (القرآن مخلوق، وليس كلام الله)، وعذب الناس، وقتل بعض العلماء، وسجن بعضهم، وضرب بعضهم، ومنهم الإمام أحمد إمام أهل السنة، ضربه، وسجبه في الأسواق، وعذبه، وأبى أن يقول: (إن القرآن مخلوق)، أبى رَحْمَةُ اللَّهِ.

بعض العلماء تأول، تخلص بالتأويل، أما الإمام أحمد، فأبى، ووقف صامداً يقول: (القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق، ائتوا لي بدليل من الكتاب والسنة على أنه مخلوق، وآتي معكم)، ليس هناك دليل.

فصمد رَحْمَةُ اللَّهِ إلى أن توفي المأمون، ثم جاء بعده المعتصم^(١)؛ نفس الشيء، عذب الإمام أحمد.

ثم مات المعتصم، جاء بعده الواثق^(٢)، ونفس الشيء، والإمام أحمد صامد رَحْمَةُ اللَّهِ، لا يترشح أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، صبر على

=الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ وَبَالِغٍ، وَصَمَّمَ عَلَى امْتِحَانِ الْعُلَمَاءِ فِي سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ، وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذَهُ اللَّهُ، فِي عَامِ ثَمَانِيَةِ عَشْرٍ وَمِائَتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٢٧٢)، والأعلام للزركلي (٤/١٤٢).

(١) هو الْحَلِيفَةُ، أَبُو إِسْحَاقَ مُحَمَّدُ ابْنُ الرَّشِيدِ هَارُونُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَهْدِيِّ بْنِ الْمَنْصُورِ الْعَبَّاسِيِّ. وُلِدَ: سَنَةَ ثَمَانَيْنِ وَمِائَةٍ، امْتَحَنَ النَّاسَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إِلَى الْأَمْصَارِ، وَأَخَذَ بِذَلِكَ الْمُؤَدِّينَ، وَفُقَهَاءَ الْمَكَاتِبِ، وَدَامَ ذَلِكَ حَتَّى أَرَاَهُ الْمُتَوَكِّلَ بَعْدَ أَرْبَعَةِ عَشَرَ عَامًا. توفي في عام ٢٢٧ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٢٩٠)، والأعلام للزركلي (٧/١٢٧).

(٢) هو الْحَلِيفَةُ، هَارُونُ الْوَائِقِ بِاللَّهِ أَبُو جَعْفَرٍ، وَقِيلَ: أَبُو الْقَاسِمِ. قَالَ الْخَطِيبُ: كَانَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُوَادٍ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَى الْوَائِقِ وَحَمَلَهُ عَلَى التَّشْدُّدِ فِي الْمَحَنَةِ. وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ. وَيُقَالُ: إِنَّ الْوَائِقَ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ الْقَوْلِ قَبْلَ مَوْتِهِ. توفي في عام ٢٣٢ هـ. انظر: تاريخ الإسلام (٥/٩٥٠)، والأعلام للزركلي (٨/٦٢).

الضرب، صبر على السجن، وهو ثابت، حتى فرج الله، وجاء المتوكل^(١) رَحْمَةُ اللَّهِ، فأزال المحنة، وناصر الإمام أحمد، وناصر مذهب أهل السنة، وجاء الفرج من الله عَزَّجَلَّ.

لكن هذا نتيجة الصبر والثبات الذي وفق الله له هذا الإمام العظيم الإمام أحمد بن حنبل، ولهذا يسمى رَحْمَةُ اللَّهِ إمام أهل السنة، كل معترف بهذا؛ أنه إمام أهل السنة؛ لصبره، وثباته، وعدم تضعضعه عن الحق^(٢)، حتى فرج الله للمسلمين، وزال المعتزلة، هلكوا، وهلك مذهبهم معهم، وبقي الحق، والحمد لله.

فهذا كلام الله منزل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، غير مخلوق - كما تقوله المعتزلة -، منزل؛ لأن الله قال: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النساء: ١٠٥]، فهو منزل، ليس مخلوقاً، وهو كلام الله.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، أثبت لنفسه الكلام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو كلام يليق بجلاله سبحانه، تكلم في الماضي، وتكلم في

(١) هو الخليفة، أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ بْنُ الْمُعْتَصِمِ بِاللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ الرَّشِيدِ هَارُونَ بْنُ الْمَهْدِيِّ بْنِ الْمَنْصُورِ الْقُرَشِيِّ، الْعَبَّاسِيُّ، الْبَغْدَادِيُّ. وُلِدَ: سَنَةَ خَمْسٍ وَمِائَتَيْنِ. وَبُوعٍ عِنْدَ مَوْتِ أَخِيهِ الْوَائِقِ فِي ذِي الْحِجَّةِ، سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ. قَالَ خَلِيفَةُ بْنُ خِيَّاطٍ: اسْتُخْلِفَ الْمُتَوَكِّلُ، فَأَظْهَرَ السُّنَّةَ، وَتَكَلَّمَ بِهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَتَبَ إِلَى الْأَفَاقِ بِرَفْعِ الْمِحْنَةِ، وَبَسْطِ السُّنَّةِ، وَنَصْرِ أَهْلِهَا. توفي سنة ٢٤٧ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٠ / ١٢)، والأعلام للزركلي (١٢٧ / ٢).

(٢) انظر ترجمة الإمام أحمد وقصة محنته في: سير أعلام النبلاء (١١ / ١٧٧ - ٣٥٨)، وطبقات الشافعية الكبرى (٢ / ٢٧).

المستقبل، ويتكلم متى شاء، إذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو صفة فعلية، يفعلها إذا شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا مذهب أهل السنة؛ أن القرآن كلام الله، وأنه منزل غير مخلوق، وهو كلام الله، سواء تلي بالألسنة، أو حُفِظ بالصدر، أو كُتِبَ في المصاحف، فهو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو مكتوب -أيضاً- في اللوح المحفوظ، القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ؛ ﴿وَلَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]؛ في اللوح المحفوظ، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، مكتوب في المصاحف، محفوظ في الصدور، متلو بالألسنة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَعْجَزَ الْبَشَرَا)، أعظم معجزة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي هذا القرآن، الذي أعجز البشر أن يأتوا بسورة واحدة مثله، تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨]، لو تعاون الجن والإنس على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لم يستطيعوا.

أنزل الله هذا على رسوله وهو بمكة قبل الهجرة، تحداهم وهو بمكة؛ لأن سورة الإسراء مكية، وفي ذاك الوقت ليس له سلطة، وليس له قوة، ومع هذا تحداهم.

وتحداهم أن يأتوا بعشر سور، فلم يستطيعوا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَنَّهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴿١﴾ ائْتُوا بِمَنْ يَعِينَكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ عَلَى أَنْ تَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ، ﴿٢﴾ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ

اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِنَّهُ يَسْتَجِيبُ لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ [هود: ١٣-١٤].

ثم تحداهم مرة ثالثة أن يأتوا بسورة واحدة، أقصر سورة، أن يأتوا بسورة واحدة، فلم يستطيعوا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]؛ أي: من يشهد لكم أن هذا مثل القرآن، ائتوا بمن يشهد لكم - من العرب، من غيرهم - أن هذا مثل القرآن سواء، لم يوجد واحد، ولم يستطيعوا، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]؛ لم تأتوا بسورة، ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾؛ يعني: في المستقبل إلى يوم القيامة.

التحدي قائم الآن، والكفار حريصون على تكذيب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من أقصر السور إلى يوم القيامة، ولن يستطيعوا.

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾: هذا خبر عن المستقبل؛ لأن الله يعلم ما كان وما يكون، أخبر أنهم لا يستطيعون في المستقبل، إلى أن تقوم الساعة، فبقي القرآن معجزة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دالة على أنه رسول الله حقاً، وهو أعظم المعجزات، أعجز البشر والجن والإنس.



وَحْيِي تَكَلَّمَ مَوْلَانَا الْقَدِيمُ بِهِ وَلَمْ يَزَلْ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ مُعْتَبَرًا

الشَّرْح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَحْيِي): وحي من الله، القرآن وحي من الله، ألقاه إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، جبريل عَلَيْهِ السَّلَام سمعه من الله، وتحمله، ثم بلغه إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورواه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَام عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا سند القرآن: ﴿إِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾؛ يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَام الرسول الملكي، ﴿إِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (١٩) ذِي قُوَّةٍ، ليس هناك أقوى من جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، ولا تستطيع الشياطين، ولا أحد أن يقربه وهو يحمل كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٠].

وفي الآية الأخرى أضافه إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُ، لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠].

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجبريل عَلَيْهِ السَّلَام مبلغان عن الله، الكلام كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما جبريل عَلَيْهِ السَّلَام ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهما مبلغان، أضافه إليهما إضافة التبليغ، لا إضافة الابتداء، والكلام يقال لمن قاله مبتدئاً، لا من قاله مبلغاً مؤدياً؛ كما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في الواسطية^(١).

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٤): (فَصَلِّ: وَمَنْ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَكُتِبَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ حَقِيقَةً لَا كَلَامٌ غَيْرُهُ؛ وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ أَوْ عِبَارَةٌ =

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَحْيٌ تَكَلَّمَ مَوْلَانَا الْقَدِيمُ بِهِ)، القديم ليس من أسماء الله، الذي من أسماء الله: الأول، والآخر؛ ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، هذا الذي من أسماء الله؛ أنه الأول والآخر، ولم يأت اسم القديم، إنما يخبر به عن الله خبراً، لا يسمى به، لكن يخبر عنه بذلك إخباراً فقط.

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (وَلَمْ يَزَلْ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ مُعْتَبَرًا)، لم يزل القرآن معتبراً بصفات الله الفعلية.



=عَنْهُ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ بِذَلِكَ فِي الْمَصَاحِفِ: لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُصَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلَّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ؛ خُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْخُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْخُرُوفِ).

يُتْلَى وَيُحْمَلُ حِفْظًا فِي الصُّدُورِ كَمَا بِالْخَطِّ يُثْبِتُهُ فِي الصُّحُفِ مَنْ زَبَرَ

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (مَنْ زَبَرَ)؛ يعني: من كَتَبَ، والزبور: هو الكتاب، الزُّبُر جمع زبور، وهو الكتاب^(١).

القرآن هو كلام الله، مكتوب في اللوح المحفوظ، مكتوب في المصاحف التي بأيدينا، محفوظ في صدورنا، متلو بألسنتنا، هو كلام الله بأي وجه كان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (يُتْلَى وَيُحْمَلُ حِفْظًا فِي الصُّدُورِ كَمَا... بِالْخَطِّ يُثْبِتُهُ فِي الصُّحُفِ مَنْ زَبَرَ)، تكفل سبحانه بحفظ القرآن في الصدور؛ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنَاتٌ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، أهل العلم يحفظونه في صدورهم، وليس من كتب الله شيء يحفظ غير القرآن؛ التوراة ليست تحفظ، لا يستطيعون حفظها، إنما الذي يحفظ هو القرآن؛ لأن الله ييسره: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، ميسر - والله الحمد -، يحفظه حتى صغار الأطفال يحفظونه، حتى الأعاجم يحفظونه، ويتقنون حفظه وتلاوته، وهم لا يفهمون العربية، سهله الله، التسهيل من الله جَلَّ وَعَلَا.



(١) انظر مادة (زبر) في: العين (٣٦٢/٧)، وتهذيب اللغة (١٣٥/١٣)، والصحاح (٦٦٦/٢)، ومقاييس اللغة (٤٤/٣)، ولسان العرب (٣١٥/٤).

وَأَنَّ مُوسَى كَلِمَةُ اللَّهِ كَلَمُهُ
إِلَهُهُ فَوْقَ ذَاكَ الطُّورِ إِذْ حَضَرَ

الشرح

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلمه الله تكليماً على طور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسمع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كلام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، لما جاء من مدين ومعه أهله، وضل الطريق في الليل، والليل بارد، رأى ناراً، وفرح بها، فأجلس أهله، وذهب يريد أن يأتيهم بمن يدلّه على الطريق؛ ﴿أَوْ أَجِدْ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، ويأتيهم أيضاً بشهاب قبس؛ لعلهم يصطلون؛ لأنهم يشكون البرد.

فلما وصل، قرب من النار، ناداه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ [طه: ١٤]، ناداه الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، قال له: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (١٣) ﴿إِنِّى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ [طه: ١٣-١٤].



فَاللَّهُ أَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ مِنْ وَضْفِهِ كَلِمَاتٍ تَحْتَوِي عِبْرًا
حَتَّى إِذَا هَامَ سُكْرًا فِي مَحَبَّتِهِ قَالَ الْكَلِيمُ: إِلَهِي، أَسْأَلُ النَّظْرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَاللَّهُ أَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ)، الله أسمع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بدون واسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أسمعها مباشرة، يسمع كلام الله بدون واسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ مُوسَى كَلِمَةُ اللَّهِ كَلِمَةٌ... إِلَهُهُ فَوْقَ ذَاكَ الطُّورِ إِذْ حَضَرَ)؛ إذ حضرا إلى الطور - كما قص الله ذلك -، وهو ذهب إلى الطور لم يفكر في هذا الأمر، يريد أن يأتي بالشهاب لأهله، ويريد أن يسأل عن الطريق، هذا الذي يريده، لكن أراد الله له غير ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَالَ الْكَلِيمُ: إِلَهِي، أَسْأَلُ النَّظْرَا)، لما واعده الله جَلَّ وَعَلَا، واعده الله أن يأتي إلى الطور؛ ليعطيه ألواح التوراة مكتوبة، التوراة مكتوبة في ألواح، يعطيه ألواح التوراة من هذا المكان.

قيل: إن الله واعده أربعين ليلة، على رأس أربعين ليلة يأتي، صام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه الأربعين، ثم ذهب إلى الموعد، وسمع كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وأعطاه التوراة. ثم إن موسى اشتاق إلى ربه، لما سمع كلام الله، اشتاق إلى رؤيته، فقال: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾: هذا في الدنيا، في الدنيا لا أحد

يستطيع أن يرى الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا أحد يستطيع، يحترق، لو تجلى الله له، لا حترق؛ ﴿لَنْ تَرِنِي﴾.

ثم أراد الله أن يبين له أنه لا يستطيع رؤية الله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، اندك الجبل، صار ترابًا من عظمة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، عند ذلك عرف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لن يستطيع أن يرى الله في هذه الدنيا، ولا أحد يستطيع ذلك.

حتى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عُرِجَ به إلى السماء السابعة وفوق السماء السابعة إذا سدرة المنتهى، سمع كلام الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، كلمه الله، فسألوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»^(١)؛ يعني: حجبه عني النور، حجاباه النور سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.



(١) أخرجه مسلم [١٩١، ١٩٢ (١٧٨)] من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إِلَيْكَ. قَالَ لَهُ الرَّحْمَنُ مَوْعِظَةً أَنَّى تَرَانِي وَنُورِي يُدْهِشُ الْبَصَرَ
فَانْظُرْ إِلَى الطُّورِ إِنْ يَثْبُتَ مَكَانَتُهُ إِذَا رَأَى بَعْضَ أَنْوَارِي فَسَوْفَ تَرَى
حَتَّى إِذَا مَا تَجَلَّى ذُو الْجَلَالِ لَهُ تَصَدَّعَ الطُّورُ مِنْ خَوْفٍ وَمَا اضْطَبَّرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (حَتَّى إِذَا مَا تَجَلَّى ذُو الْجَلَالِ لَهُ)؛ يعني: تجلَّى للطور.
قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (تَصَدَّعَ الطُّورُ مِنْ خَوْفٍ وَمَا اضْطَبَّرَا)، وعند ذلك
خر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صَعْقًا مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، لما رأى الجبل تصدع، خر عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وَأُلْقِيَ عَلَى الْأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾؛ ذهب عنه الغشي، ﴿قَالَ
سُبْحَانَكَ﴾؛ نزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾
[الأعراف: ١٤٣].



فصل في الإيمان بالقدر خيره وشره

وبالقضاء وبالأقدار أجمعها إيماننا واجب شرعاً كما ذكرنا
فكل شيء قضاء الله في آزل طراً وفي توجّه المحفوظ قد سطرًا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وبالقضاء وبالأقدار أجمعها... إيماننا واجب شرعاً كما ذكرنا)، من أصول الإيمان أو من أركان الإيمان: الإيمان بالقضاء والقدر، وهو أن الله قدر الأشياء قبل وقوعها، وقضاها قبل وقوعها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ؛ فلا يحصل شيء في هذا الكون -من خير أو شر، من كفر وإيمان، من طاعة ومعصية، من صحة ومرض، من غنى وفقر، وعز وذل-، لا يحصل شيء في هذا الكون، إلا وهو مقدر ومكتوب في اللوح المحفوظ، فالإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، ومن لم يؤمن بالقضاء والقدر، فإنه كافر -والعياذ بالله!

كما ذكر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما سأله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١).

فالقدر سبق من الله جَلَّ وَعَلَا، وَكُتِبَ في اللوح المحفوظ، ولا يجري في هذا الكون شيء، إلا وقد قضاها الله وقدره.

(١) رواه مسلم في أول كتاب الإيمان [ح ١ (٨)].

لاحظ! عَلِمَهُ أَوَّلًا، الله علم الأشياء قبل حصولها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، ثم يوجد لها سبحانه إذا شاء في مواقيتها، التي حددها الله لها: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، وهو اللوح المحفوظ. ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ نَبْرَاهَا﴾؛ أي: من قبل أن نخلقها ونوجدتها؛ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

لماذا أخبرنا الله بذلك؟ ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

فإذا علمت أن ما أصابك من المكروه أنه قضاء وقدر، وأنه لا بد منه، مهما عملت، لا تخلص منه، هو قَدَرٌ، حينئذ يهون عليك الأمر، وتخضع لله عَزَّجَلَّ، تصبر على المصائب، وتتوب إلى الله من المعاييب والذنوب.

﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ﴾: إذا أنعم الله عليكم بنعمة، فاشكروه، ولا تبطروه وتكبروا وتفسقوا، لا تسرفوا في نعم الله؛ تصرفوها في معصية الله.

﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ﴾: فالإنسان إذا ابتلي صبر، المسلم إذا ابتلي، صبر، وإذا أنعم عليه، شكر، هكذا المؤمن، أما الكافر، فإنه إذا ابتلي، جزع وسخط، وإذا أنعم عليه، أشر وبطر - نسأل الله العافية!

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَكُلُّ شَيْءٍ قَضَاهُ اللَّهُ فِي أَزَلٍ)؛ يعني: في الماضي، في الماضي البعيد، الأزل: هو الوقت الماضي البعيد، الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَفِي لَوْحِهِ الْمَحْفُوظِ قَدْ سَطَّرَا)، علمه الله، ثم كتبه. فالله علم الأشياء كلها قبل حصولها، ثم كتبها في اللوح المحفوظ، ثم يوجد لها متى شاء في مواقيتها، ويخلقها في مواقيتها^(١).



(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع الفتاوى (٣ / ١٤٨، ١٤٩)، والعقيدة الواسطية (ص ٣٥): (وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره، والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين: فالدرجة الأولى: الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق. وأما الدرجة الثانية: فهو مشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه، لا خالق غيره، ولا رب سواه). اهـ. باختصار. وانظر: جامع العلوم والحكم (ص ٢٧)، وشفاء العليل لابن القيم (ص ٢٩).

وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَمٍّ وَمِنْ فَرْحٍ وَمِنْ ضَلَالٍ وَمِنْ شُكْرَانٍ مَنْ شَكَرَا
فَإِنَّهُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ قَدَرَهُ فَلَا تَكُنْ أَنْتَ مِمَّنْ يُنْكِرُ الْقَدَرَا
وَاللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ فَعَنْ أَمْرِ الْإِلَهِ جَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَا تَكُنْ أَنْتَ مِمَّنْ يُنْكِرُ الْقَدَرَا)، واضح هذا، لا تكن ممن ينكر القدر، بل تؤمن بهذا، ومن لم يؤمن بهذا، فهو كافر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَاللَّهُ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ)، أفعال العباد مخلوقة لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، فهي خلق الله، وهي أفعال العباد، الله خلقها، والعبد فعلها باختياره وإرادته ومشئته، فهو فعل العبد، وهو خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعبد وأفعاله مخلوقة لله سبحانه.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]، فيقدر أهل الخير للخير والعمل الصالح، ويقدر أهل الشر للشر والعمل السيء؛ «كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(١)؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٤٩٤٥)، ومسلم (٢٦٤٧) (٧) عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُثُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ مَنْزِلُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟ قَالَ: «لَا، اعْمَلُوا، فَكُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: ٥-٦]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَيَّرَهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ١٠].

﴿٦﴾ فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَحَلَ وَاسْتَفْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيْسِرُهُ
لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ [الليل: ٥-١٠]؛ بسبب فعله واختياره ومشيتته.

الله إن أحسن، أكرمه، وإن أساء، عذبه على فعله، لا على القضاء
والقدر، على فعله هو؛ ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، على
فعله هو.

أما لو لم يفعل شيئاً، لا ينال شيئاً؛ لأنه لا يقال: (هذا مكتوب عليه،
وسيصيبه لو لم يفعل شيئاً)، هو سيفعل؛ فإن فعل خيراً، وجد خيراً، وإن
فعل شراً، وجد شراً.



فَفِي يَدَيْهِ مَقَادِيرُ الْأُمُورِ وَعَنْ قَضَائِهِ كُلُّ شَيْءٍ فِي الْوَرَى صَدْرًا
فَمَنْ هَدَى فَبِمَحْضِ الْفَضْلِ وَفَقَّهُ وَمَنْ أَضَلَّ بَعْدِلٍ مِنْهُ قَدْ كَفَرَا
فَلَيْسَ فِي مُلْكِهِ شَيْءٌ يَكُونُ سِوَى مَا شَاءَهُ اللَّهُ نَفْعًا كَانَ أَوْ ضَرَرًا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَمَنْ هَدَى فَبِمَحْضِ الْفَضْلِ وَفَقَّهُ... وَمَنْ أَضَلَّ بَعْدِلٍ مِنْهُ قَدْ كَفَرَا)، فالله جَلَّ وَعَلَا يهدي من يشاء بفضله، ليس بحول الإنسان، ولا بقوة الإنسان.

الإيمان والهداية والأعمال الصالحة إنما هي فضل من الله، منحها الله لعبده، فهي فضل الله.

لا تقل: (هذا عملي، وهذا، وهذا)؛ هذا فضل الله عليك، هو الذي وفقك لهذا، وهو الذي علمك هذا، وهو الذي حفظه لك، ولم يضع منه شيئاً. وأما من كفر، فإن الله يعذبه بعدله؛ يعني: يعذبه على كفره، لا يعذبه؛ لأنه قدر عليه، بل يعذبه على كفره؛ لأنه كفر، هو الذي كفر، هو الذي عصي، هو الذي فسق.

فالصالح يقال: (صلى، وصام، وحج، واعتمر، وجاهد)، والكافر يقال: (كفر، وفسق، وعصى، وطغى، وبغى)؛ أفعاله تنسب إليه؛ خيراً أو شراً.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَيْسَ فِي مُلْكِهِ شَيْءٌ يَكُونُ سِوَى... مَا شَاءَهُ اللَّهُ نَفْعًا كَانَ أَوْ ضَرَرًا)، واضح هذا.

فَصْلٌ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَتِهِ

الشرح

عذاب القبر ونعيمه. فالقبر إما أن يكون روضة من رياض الجنة على أهل الإيمان والتقوى، وإما أن يكون حفرة من حفر النار على أهل النفاق والكفر والمعاصي بسبب أفعالهم.

وذلك أن الميت إذا وُضِعَ في قبره، ثم سد عليه اللحد، ثم أهيل عليه التراب، وانتهوا من دفنه، وانصرفوا إلى أهلهم، «وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ»^(١) وهم منصرفون، يأتيه ملكان في القبر - الله على كل شيء قدير -، يأتيه ملكان، يرسلهما الله له، فيقعدانه، وتعاد روحه في جسده - ليس مثل الدنيا، هذه حياة برزخية، لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، «وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ: وَمَا يُدْرِيكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ»، زَادَ فِي حَدِيثٍ جَرِيرٍ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّجَلَّ: ﴿يُشَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧] الْآيَةُ - ثُمَّ اتَّفَقَا - قَالَ: «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ:

(١) تواترت الأحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إثبات عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين للإنسان بعد موته؛ كما جاء في حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه البخاري (١٣٣٨)، (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)، وجاء أيضًا من حديث البراء، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأبي قتادة، وعائشة، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا. قَالَ: وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ، يوسع له في قبره مد بصره، فيصير في روضة من رياض الجنة، إلى أن يبعثه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وأما المنافق والمرتاب الذي كان يعيش على الشك في هذه الدنيا وعلى الريب، فيقول: (لا أدري، هل هو صحيح أن الذي يقول محمد أو ليس بصحيح، لكن أنا اشتغل، ليس عن إيمان)، هو متردد وشاك -والعياذ بالله-، مرتاب، فهذا يغيب عنه الجواب في هذه اللحظة، وإن كان متعلماً، وإن كان دكتوراً، وإن كان فصيحاً في الدنيا وخطيباً، وإن كان حافظاً يحفظ كل ما يسمع، حينئذ يغيب عنه كل شيء، ويقول: «ها ها، لا أدري، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئاً فَقُلْتُ»؛ يعني: هو مقلد فقط، وليس مقتنعاً بالذي يقوله، لكن يجاري الناس، وهو ليس مقتنعاً، وعنده شك وريب؛ متردد، «فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَالْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، قَالَ: وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَحْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ»، فيقال: (هذا مكانك إلى أن يبعثك الله)، وفي هذا يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، الله يثبت المؤمن في هذا المشهد العظيم المرعب، يشبهه الله، يجاوب بجواب سديد؛ لأنه في الدنيا عاش على الإيمان، على الصدق، ليس عنده شك أو ريب.

وأما المنافق والمرتاب، فإنه يتلجلج، ويغيب عنه كل شيء، ولا يستطيع الجواب، يقول: (ها ها)، كلمة «ها ها» هذه معناها: ليس عنده شيء، أنا سمعت الناس يقولون شيئاً، أنا لا أعمل في الدنيا عن اقتناع، إنما هو مجاملة متابعة للناس، «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ»، نسأل الله العافية!

ليس في قلبه إيمان، ولا في قلبه تصديق؛ لأن بعض الناس يقول: (هذه تقاليد، أنا أمشي معهم على هذه التقاليد فقط، أنا ليس عندي إيمان بها، ولا أصدق بها)، نسأل الله العافية!

هذه يقولونها الآن، يصرحون بهذا.

الذي لا يصرح بالعداوة يجامل، ويقول: (أنا سأعيش مع الناس، وأمشي معهم، لن يضرني هذا)، يحسب أن المسألة تضيع هكذا؛ أنه عيش في هذه الدنيا، وليس وراءه شيء، نسأل الله العافية!



وَلَمْ تَمُتْ قَطُّ مِنْ نَفْسٍ وَمَا قُتِلَتْ
مِنْ قَبْلِ إِكْمَالِهَا الرِّزْقَ الَّذِي قُدِرَا
وَكُلُّ رُوحٍ رَسُولُ الْمَوْتِ يَفْبِضُهَا
بِإِذْنِ مَوْلَاهُ إِذْ تَسْتَكْمِلُ الْعُمْرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَمْ تَمُتْ قَطُّ مِنْ نَفْسٍ وَمَا قُتِلَتْ)، العمر الذي قدره الله لأبد أن يستكمله الإنسان، فإذا تكامل عمره إما أن يُقتل، وإما أن يموت، هو كله هذا أجله، ليس له محيد عنه.

فالمقتول لا يقال: (إنه ضاع عليه عمره، وانقطعت عليه حياته)، هذا أجله، ليس له غير هذا، لو أن له ساعة في الدنيا، لم يُقتل.

فالمقتول والميت سواء، كلهم انتهى أجلهم المكتوب لهم؛ لأنه إذا بلغ أربعة أشهر في بطن أمه يأتيه الملكان، فيؤمران بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد^(١)، من جملة ما يكتب عليه أجله، ولا يزداد فيه، ولا ينقص، إذا انتهى، إما أن يُقتل، وإما أن يموت حتفًا، هو ميت بأجله، مقتول بأجله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِنْ قَبْلِ إِكْمَالِهَا الرِّزْقَ الَّذِي قُدِرَا): الذي قدره الله لها من

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٧٤٥٤)، ومسلم (٢٦٤٣): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلَاقَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةٌ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتِبَ رِزْقُهُ، وَأَجَلُهُ، وَعَمَلُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ...».

الرزق ومن الأجل؛ «لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوِفِيَ رِزْقَهَا وَأَجَلَهَا»^(١)؛ كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكُلُّ رُوحٍ رَسُولُ الْمَوْتِ يَقْبِضُهَا... بِإِذْنِ مَوْلَاهُ إِذْ تَسْتَكْمِلُ الْعُمْرَ)، إذا تم الأجل، أرسل الله لها ملك الموت؛ ليقبض روحها، وهو عزرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه أعوان.

﴿تَوَفَّتَهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]؛ يعني: الملائكة مع ملك الموت تقبض روحه، تجمعها من جسمه، ثم إذا وصلت إلى حلقة، تناولها عزرائيل، فأخذها، وقبضها.

هم يساعدونه على ذلك، يجمعون الروح من الجسم ومن العروق، فإذا تجمعت في الصدر، قبضها عزرائيل؛ ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، وفي آية الأنعام: ﴿تَوَفَّتَهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، ففي آية يقول: إن الذي يقبض ملك الموت: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، في سورة السجدة، وفي سورة الأنعام يقول: ﴿تَوَفَّتَهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، فما الجمع بين الآيتين؟

الجمع: أن الذي يقبض هو ملك الموت، ولكن هؤلاء يرسلهم الله معه يساعدونه على قبض الروح.

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وابن أبي عاصم في السنة (١٨٣/١)، والطبراني في الأوسط (٢٦٨/٣)، والحاكم (٤/٢)، وابن حبان (٣٢/٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٠٦/٢)، وفي الكبرى (٤٣٤/٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٥٦/٣) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَكُلُّ مَنْ مَاتَ مَسْئُولٌ وَمُفْتَتَنٌ مِنْ حِينَ يُوَضَّعُ مَقْبُورًا لِيُخْتَبَرَا
وَأَنَّ أَرْوَاحَ أَصْحَابِ السَّعَادَةِ فِي جَنَّاتٍ عَذْنٍ كَطَيْرٍ يَغْلُقُ الشَّجَرَا
لَكِنَّمَا الشُّهَدَا أَحْيَا وَأَنْفُسُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ حَسَانٍ تُعْجِبُ النَّظَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكُلُّ مَنْ مَاتَ مَسْئُولٌ وَمُفْتَتَنٌ... مِنْ حِينَ يُوَضَّعُ مَقْبُورًا لِيُخْتَبَرَا) كما سبق فتنة القبر، وسؤال منكر ونكير.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ أَرْوَاحَ أَصْحَابِ السَّعَادَةِ فِي... جَنَّاتٍ عَذْنٍ كَطَيْرٍ يَغْلُقُ الشَّجَرَا) الذي في القبر دائماً هو الجسم، أما الروح، فهي تذهب، وتأتي، تتصل بالجسم، وهو في القبر، وتذهب وتأتي، فهي طليقة، الروح طليقة، بخلاف الجسم؛ فإنه محبوس في هذا القبر، والروح تأتيه أحياناً، وتذهب أحياناً، تذهب إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَكِنَّمَا الشُّهَدَا أَحْيَا وَأَنْفُسُهُمْ... فِي جَوْفِ طَيْرٍ حَسَانٍ تُعْجِبُ النَّظَرَا) والشهداء في سبيل الله لهم مزية وخاصة، تكون أرواحهم في أجواف طير، تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، تأكل من شجر الجنة، وتشرب من أنهارها، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فهؤلاء الشهداء^(١).

(١) أخرجه مسلم (١٢١) (١٨٨٧) عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: «سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْزَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُصِرَ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ =

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَكِنَّمَا الشَّهَدَا أَحْيَا وَأَنْفُسُهُمْ... فِي جَوْفِ طَيْرٍ حَسَانٍ تُعْجِبُ النَّظْرَا)، (أَحْيَا)؛ لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وهي حياة برزخية، ليست مثل حياتنا في الدنيا، فهم ماتوا من الدنيا، ونُقلوا من الدنيا، تزوجت نساؤهم، وقسمت موارثهم، عُولِموا معاملة الأموات، وأما في القبر، فهم أحياء؛ ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾: عند ربهم ليس في الدنيا، ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، لا تدرون، أنتم لو تحفرون، لم تجدوا شيئاً من هذا؛ لأنه في الغيب، هو في عالم الغيب، وأنتم في عالم الشهادة، أنتم في الدنيا، وهو في الآخرة، ولا ترون ما هو فيه من عذاب أو نعيم.



= بِالْعَرْشِ، تَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ أَطْلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرُحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تَرَكُوا.

وَأَنَّهَا فِي جَنَّانِ الْخُلْدِ سَارِحَةٌ مِنْ كُلِّ مَا تَشْتَهِي تَجْنِي بِهَا الثَّمَرَا
وَأَنَّ أَرْوَاحَ مَنْ يَشْقَى مُعَذَّبَةٌ حَتَّى تَكُونَ مَعَ الْجُثْمَانِ فِي سَقَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّهَا فِي جَنَّانِ الْخُلْدِ سَارِحَةٌ... مِنْ كُلِّ مَا تَشْتَهِي تَجْنِي بِهَا الثَّمَرَا)، هؤلاء الشهداء، أرواح الشهداء.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ أَرْوَاحَ مَنْ يَشْقَى مُعَذَّبَةٌ... حَتَّى تَكُونَ مَعَ الْجُثْمَانِ فِي سَقَرَا)، العذاب في القبر يقع على الروح وعلى الجسد، ليس على الروح فقط، على الروح وعلى الجسد، والله قادر على أن يعذب الجسد المتحلل إلى تراب، يوصل إليه العذاب.

ثم أيضاً لو لم يقبر الميت؛ لو أكلته السباع أو الطيور أو في البحر، غرق في البحر، يأتيه النعيم أو العذاب وهو في القبر، فقبره هذا، قبره البحر، قبره جوف الطير، قبره جوف السباع هذا قبره، ويأتيه ما يختص به من نعيم القبر أو من عذابه، وهو في أي مكان.



فصل في البعث بعد الموت والجزاء

الشرح

من أركان الإيمان الستة: الإيمان باليوم الآخر، فمن أنكر الإيمان باليوم الآخر -يعني: من أنكر البعث-، فهو كافر؛ لأنه مكذب لله، ولرسوله، ولإجماع المسلمين.

كان المشركون ينكرون البعث، يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (١٦) ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٧]، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، إلى آخر ما يقولون مما ذكره الله عنهم، ويظنون أن الله لا يقدر على بعثهم وإحيائهم من الموت.

وهذا جهل بقدرة الله جَلَّوَعَلَا، وإنكار لما أخبر الله به؛ أنه يبعث الموتى، ويحيي الموتى، فكل من أنكر البعث، فهو كافر. وهذا مذهب المشركين والملاحدة، والله جَلَّوَعَلَا رد عليهم شبههم بالبراهين القطعية، منها:

أن الذي قدر على بداءتهم وإحيائهم وإيجادهم من العدم قادر على أن يعيدهم من باب أولى، الذي قدر على البداءة قادر على الإعادة، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، الإعادة أهون من البداءة، هذا من باب ضرب المثل، وإلا الله جَلَّوَعَلَا لا يعجزه شيء.

والله جَلَّوَعَلَا قادر على الإعادة؛ كما أنه قدر على البداية من باب أولى؛ ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

من شبههم: أنهم يقولون: ﴿أَتَتُوا بَابًا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]، إن كنتم تؤمنون أن الله يبعث الأموات، فليأت بآبائنا الذين ماتوا، وننظر. يتحدثون الله جَلَّوَعَلَا، وهذا من جهلهم.

والله جَلَّوَعَلَا قادر على أن يأتي بآبائهم، ولكنه أجل ذلك إلى أجل لا يخلفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا جاء الأجل، بعثهم الله جَلَّوَعَلَا.

أتوا بآبائنا الأولين، ﴿أَتَتُوا بَابًا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٥-٢٦]، الله لا يغير سبحانه، لا يغير مقاديره من أجل استعجالهم، بل هو قدر كل شيء في وقته، فإذا جاء وقته، فإن الله جَلَّوَعَلَا يفعل؛ كما يشاء.

والله ليس بعاجز على أن يأتي بآبائهم، وهم ينظرون إليه، لكن لم يأت وقت البعث؛ ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾، ثم: للترتيب والتراخي.

فهم يتحدثون الله جَلَّوَعَلَا، ولكن الله حليم، لم يعاجلهم بعقوبة، بل هو يمهلهم؛ إما لأجل أن يتوبوا، وإما لأجل أن يستدرجهم، ويزيدوا من الكفر والإلحاد، فيشتد عذابه -نسأل الله العافية!

والله قادر على إحياء الموتى، ولو كانوا رميماً، ولو كانوا تراباً، فهو سبحانه قادر على أن يحييهم.

حديث الرجل الذي أوصى بنيه، فقال: «إِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا»، ونفذوا وصيته، ثم إن الله جَلَّوَعَلَا أمر الأجواء أن تجمع ما فيها من هذا الهباء الذي طار، واجتمع ما تفرق في الأجواء من حريق جسده، فأعاده الله كما كان، «فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ»^(١)، فالله عفا عنه بسبب جهله، الله عفا عنه؛ لأنه حمله على هذا خوف الله عَزَّوَجَلَّ، اجتهد في هذا، فالله عفا عنه سبحانه، تاب عليه، الله قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء، ولكنه قدر الأشياء في مواقيتها؛ لا تتقدم عنها، ولا تتأخر.



(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٨)، ومسلم (٢٧) (٢٧٥٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّ رَجُلًا كَانَ قَبْلَكُمْ، رَغَسَهُ اللَّهُ مَالًا، فَقَالَ لِبَنِيهِ لَمَّا حُضِرَ: أَيُّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرُ أَبٍ، قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَإِذَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُونِي فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ، فَتَلَقَّاهُ بِرَحْمَتِهِ».

وَأَنَّ نَفْخَةَ إِسْرَافِيلَ ثَانِيَّةٌ فِي الصُّورِ حَقٌّ فَيَحْيَا كُلُّ مَنْ قُبِرَا
كَمَا بَدَأَ خَلَقَهُمْ رَبِّي يُعِيدُهُمْ سُبْحَانَ مَنْ أَنْشَأَ الْأَرْوَاحَ وَالصُّورَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ نَفْخَةَ إِسْرَافِيلَ)، إسرائفيل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الملك الموكل بالنفخ في الصور، الصور: قرن، يسمى القرن، وهذا القرن لا يعلم عظمه إلا الله؛ كما أن إسرائفيل ملكٌ عظيم، لا يعلم عظمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا القرن جمع الله فيه أرواح الأموات في هذا القرن، فيأمر إسرائفيل عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الدنيا، فينفخ في الصور النفخة الأولى، فيموت كل من في الوجود، إلا من شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ﴾: يعني: مات.

﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾: ماتوا، لم يبق أحد إلا من شاء الله.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾: هذه نفخة البعث، الأولى: نفخة الصعق، والنفخة الثانية: نفخة البعث.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]: يقومون من قبورهم، ينظرون على خلقتهم، لا يختلف شيء من خلقتهم، حتى إن من كان يعرفهم في الدنيا، إذا رآه قال: هذا فلان وهذا فلان.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾: إذا نفخ إسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ في الصور النفخة الثانية، تطايرت الأرواح إلى أجسادها، ثم مشوا إلى المحشر، لا يتخلف منهم أحد؛ ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ﴾: يعني: إلى علم، مثل الجند يمشون خلف العلم.

﴿كَانَهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ﴾ (٤٣) خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿[المعارج: ٤٣-٤٤]، فإذا نفخ في الصور ثانية، يحيا كل من قُبرٍ.

لاحظ! تبعر القبور، ويخرج الأموات، ويقفون، إلا أنه لا أرواح فيهم، ثم ينفخ إسرافيل، فتتطاير الأرواح إلى أجسادها، وتتحرك، وتحيا، وتسير إلى المحشر، لا يتخلف منهم أحد: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، بقدرة الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهناك نفخة الثالثة قبل نفخة الصعق تسمى نفخة الفزع، في آخر سورة النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزَعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوٍّ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، هذه نفخة الفزع، ثم تعقبها نفخة الصعق، ثم نفخة البعث.

ومن العلماء من يقول: نفخة الفزع داخلية في نفخة الصعق، فهما نفختان فقط في سورة الزمر^(١).

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٥٤٤)، وتفسير القرطبي (١٣/ ٢٤٠)، والبحر المحيط في التفسير (٩/ ٢٢١).

وفريق من العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية يقولون: لا، النفخات
ثلاث: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث؛ كما ذكر الله ذلك في
القرآن الكريم^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَمَا بَدَأَ خَلْقَهُمْ رَبِّي يُعِيدُهُمْ... سُبْحَانَ مَنْ أَنْشَأَ الْأَرْوَاحَ
وَالصُّوَرَا)، الله أنشأ الأجسام، وأنشأ الأرواح التي تحل في الأجسام وتتحرك،
وتمشي.



(١) انظر: مجموع الفتاوى (٤/٢٦٠، ١٦/٣٥)، والروح (ص ٣٦)، ومعارج القبول
(٢/٦٦٠، ٨٠٠).

حَتَّىٰ إِذَا مَا دَعَا لِلْجَمْعِ صَارِحُهُ وَكُلُّ مَيِّتٍ مِنَ الْأَمْوَاتِ قَدْ نُشِرَا
 قَالَ الْإِلَهَ قِفُوهُمْ لِلسُّؤَالِ لِكُنَى يَقْتَصِّ مَظْلُومُهُمْ مِمَّنْ لَهُ قَهَرَا
 فَيُوقَفُونَ أُلُوفًا مِنْ سِنِينَهُمْ وَالشَّمْسُ دَانِيَةً وَالرَّشْحُ قَدْ كَثُرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (حَتَّىٰ إِذَا مَا دَعَا لِلْجَمْعِ صَارِحُهُ... وَكُلُّ مَيِّتٍ مِنَ الْأَمْوَاتِ قَدْ نُشِرَا)، هذه حالة ثانية بعد البعث من القبور، وهو الحشر في مكان واحد في الساهرة: ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، والساهرة من أرض الشام، وذلك أن الله جَلَّ وَعَلَا يدك الجبال والمرتفعات، فلا يبقى في الأرض جبل؛ ﴿وَسَتَلُونَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۖ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، فيجعلهم الله في هذا المكان: أول الخلق وآخر الخلق كلهم في هذا الصعيد، ويحصل زحام شديد، القدم عليه ألف قدم من الرحمة، وتدنو منهم الشمس، ويعرقون عرقًا شديدًا بحسب أعمالهم، يعرقون عرقًا شديدًا إلى حد أن بعضهم يلجمه العرق إجمًا، خمسين ألف سنة في هذا المحشر، ثم ينصرفون منه إلى الحساب، ينصرفون من الموقف الطويل إلى الحساب.

أما أهل الإيمان، فإنهم في راحة وفي ظلال، لا يقاسون من هذا الحشر، ولا من هذا الحر، ولا من هذا العطش، هم في ظلال؛ ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، تبشرهم، بينما يشتد الحشر على الكفار.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: حَتَّى إِذَا مَا دَعَا لِلْجَمْعِ صَارِخُهُ... وَكُلُّ مَيِّتٍ مِنَ الْأَمْوَاتِ
قَدْ نُشِرَا؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا
دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

ينادي منادٍ: أيتها الأجسام البالية، والشعور المتفرقة، واللحوم المتمزقة!
إن الله يأمركم أن تجتمعوا للبعث والحشر، فيقوم كل من في القبور. دعوة
واحدة لأهل القبور، فيقومون من قبورهم لرب العالمين؛ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ
إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾: يأمر الملك فيدعوهم، ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً
مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَيُوقَفُونَ أَلُوفًا مِّنْ سِنِينَهُمْ... وَالشَّمْسُ دَانِيَةٌ وَالرَّشْحُ
قَدْ كَثُرَا) خمسين ألف سنة؛ كما في القرآن الكريم؛ أنهم يوقفون في المحشر
خمسين ألف سنة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالرَّشْحُ قَدْ كَثُرَا)؛ يعني: العرق.



وَجَاءَ رُبُّكَ وَالْأَمْلَاقُ قَاطِبَةً لَهُمْ صُفُوفٌ أَحَاطَتْ بِالْوَرَى زُمَرًا

الشرح

إذا تمت المدة التي قدرها الله لوقوفهم: خمسين ألف سنة، وأصابعهم ما أصابعهم، تقدموا إلى أبيهم آدم؛ يطلبون منه الشفاعة؛ أن يشفع لهم عند الله أن يريحهم من الموقف - إما إلى الجنة، وإما إلى النار -، فيعتذر آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويقول: اذهبوا إلى ابني نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فيذهبون إلى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعتذر، ثم يأمرهم أن يذهبوا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يذهبون إليه، فيعتذر، ثم يأمرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يذهبوا إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يذهبون إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيعتذر، ثم يذهبون إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول: «أَنَا لَهَا»، ثم يتقدم، فيسجد بين يدي ربه، ويدعوه، ويتضرع إليه، ويستمر على ذلك، حتى يقال له: «يَا مُحَمَّدُ! ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ»^(١)، فيشفع للخلائق أن يصرفهم الله من الموقف إلى الحساب، فيستجيب الله شفاعته.

وهذه الشفاعة خاصة بنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي الشفاعة العظمى، والمقام المحمود الذي يحمد عليه الأولون والآخرون: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ

(١) كما في حديث الشفاعة الذي ورد بعدة ألفاظ، منها: ما رواه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٣٢٢٢) [١٩٣]، و[٣٢٦] (١٩٢)، بلفظ أتم، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (٣٢٧) [١٩٤]، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ورواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (٣٠٢) [١٨٣]، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿[الإسراء: ٧٩]، هذا هو المقام المحمود والشفاعة العظمى، فيستجيب الله له.

ثم يأتي سبحانه، يأتي بنفسه، بذاته، ويحيي كما في القرآن؛ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

يأتي سبحانه، ﴿وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وتشرق الأرض بنور ربها، ثم يحاسب العباد، يحاسب العباد على أعمالهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ قَاطِبَةً... لَهُمْ صُفُوفٌ أَحَاطَتْ بِالْوَرَى زُمَرًا)، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾: يعني: الملائكة، ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، تأتي الملائكة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتحيط بالخلق من جميع الجوانب.

﴿يَمْعَسَرُ الْخَيْنَ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَافْذُوا﴾ [الرحمن: ٣٣]: لا يستطيعون أن يهربوا ولا أن يخرجوا، الملائكة قد أحاطت بهم من جميع الجوانب.



وَجِيءَ يَوْمِيذٍ بِالنَّارِ تَسْحَبُهَا خُزَانُهَا فَأَهَالَتْ كُلُّ مَنْ نَظَرَا
لَهَا زَفِيرٌ شَدِيدٌ مِنْ تَغِيْظِهَا عَلَى الْعَصَاةِ وَتَرْمِي نَحْوَهُمْ شَرَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَجِيءَ يَوْمِيذٍ بِالنَّارِ تَسْحَبُهَا... خُزَانُهَا فَأَهَالَتْ كُلُّ مَنْ نَظَرَا)، ثم يؤتى بالنار، لها سبعون زمامًا، تقودها الملائكة^(١)، وينظرون إليها عيانًا، فيؤتى بها؛ ﴿وَجِيءَ يَوْمِيذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمِيذٍ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ (٢٣) يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴿[الفجر: ٢٣-٢٤]، تمنى أنه عمل عملاً صالحًا، لكن فات الأوان، التمنى لا يكون إلا بالشيء المستحيل، أما الترجي، فإنه يكون بالشيء الممكن؛ ﴿يَلَيْتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾، حينئذ ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]، ﴿وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦]، ليس لهم عنها محيص.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (لَهَا زَفِيرٌ شَدِيدٌ مِنْ تَغِيْظِهَا)؛ لها زفير، لها أصوات، ﴿تَرْمِي بِشَكْرِ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢]؛ حينئذ يرتاع كل من كان عمله باطلاً، عمله سيئًا، يرتاع منها، أما أهل الإيمان، فإنهم في أمان منها.

﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا﴾؛ يعني: النار -والعياذ بالله- ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]؛ كما في سورة الفرقان.

(١) أخرجه مسلم (٢٩) (٢٨٤٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمِيذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يُجْرُونَهَا».

وَيُرْسِلُ اللَّهُ صُحُفَ الْخَلْقِ حَاوِيَةً أَعْمَالُهُمْ كُلَّ شَيْءٍ جَلٍّ أَوْ صَغُرًا
فَمَنْ تَلَقَّتهُ بِالْيُمْنَى صَحِيفَتُهُ فَهُوَ السَّعِيدُ الَّذِي بِالْفَوْزِ قَدْ ظَفِرَا
وَمَنْ يَكُنْ بِالْيَدِ الْيُسْرَى تَنَاوُلُهَا دَعَا ثُبُورًا وَلِلنَّيِّرَانِ قَدْ حُشِرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيُرْسِلُ اللَّهُ صُحُفَ الْخَلْقِ حَاوِيَةً... أَعْمَالُهُمْ كُلَّ شَيْءٍ جَلٍّ أَوْ صَغُرًا) هذا موقف آخر، وهو إحضار الصحف -صحف الأعمال-، كل شيء مسجل في هذه الصحف، وأنت الذي أملتيتها في حياتك الدنيا، أنت الذي أملتيتها.

فيعطى الناس صحائفهم: المؤمنون يأخذون صحائفهم بأيانهم، والكفار والمشركون يأخذون صحائفهم بشمالهم؛ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ [الانشقاق: ٧-٩]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَ كِتَابَهُ، بِيَمِينِهِ﴾ ﴿١٩﴾ فَقَوْلُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ ﴿٢٠﴾ [الحاقة: ١٩]، ينشره مفتخرًا به على الناس، يقول: (انظروا! انظروا كتابي)؛ من الفرح والسرور به، ﴿هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابَهُ﴾ ﴿١٩﴾ إِنْ ظَنَنْتُ أَنْيْ مُلْكِي حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٠﴾ [الحاقة: ١٩-٢٠]؛ أي: أيقنت، ﴿ظَنَنْتُ﴾ بمعنى أيقنت ﴿أَنْيْ مُلْكِي حِسَابِيَّةٌ﴾ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ [الحاقة: ٢٠-٢٤].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ، بِشِمَالِهِ، فَيَقُولُ يَلَيِّنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِيَّةً ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أُدْرَ مَا حِسَابِيَّةً ﴿٢٦﴾ يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٢٥-٣٠]، إلى آخر الآيات، هذا تطاير الصحف.

وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]؛
يعني: عمله، ﴿طَبْعَهُ﴾: عمله.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]،
يقرأ الكتاب هذا يوم القيامة من يقرأ ومن لا يقرأ؛ كلُّ يقرأ كتابه، ولا ينكر منه شيئاً: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئْنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].



وَوَزَنُ أَعْمَالِهِمْ حَقٌّ فَإِنْ ثَقُلَتْ بِالنَّخِيرِ فَازَ وَإِنْ خَفَّتْ فَقَدْ خَسِرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَوَزَنُ أَعْمَالِهِمْ حَقٌّ)، هذه حالة ثالثة من أهوال يوم القيامة، وهي نصب الميزان.

بعد أن يتناولوا الصحائف، ويقرؤوها ينصب الميزان، وهو ميزان حقيقي، لا يعلمه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتوزن فيه أعمال العباد؛ توضع الحسنات في كفة، وتوضع السيئات في كفة: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: رجحت حسناته بسيئاته^(١)، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾:

(١) ورد ذكر الكفتين في عدد من الأحاديث، منها: حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه ابن حبان في صحيحه (١٠٢/١٤)، والحاكم في المستدرک (٢٢٨/١) وصححه، وفيه: «يَا مُوسَى لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ مَالَتْ بِهِمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وروى أحمد في المسند (١٦٩/٢، ١٧٠) نحوه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ورد ذكر الكفة في حديث البطاقة الذي رواه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢١٧/٢)، والحاكم (٦/١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ورد ذكر اللسان مع الكفتين عند البيهقي في شعب الإيمان (٢٦٣/١) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «الْمِيزَانُ لَهُ لِسَانٌ وَكِفَتَانِ يُوزَنُ فِيهِ الْحَسَنَاتُ، وَالسَّيِّئَاتُ، فَيُؤْتَى بِالْحَسَنَاتِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَتُوضَعُ فِي كِفَةِ الْمِيزَانِ فَتُنْقَلُ عَلَى السَّيِّئَاتِ. قَالَ: فَيُؤْخَذُ فَيُوضَعُ فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ مَنَازِلِهِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْمُؤْمِنِ الْحَقُّ بِعَمَلِكَ. قَالَ: فَيَنْطَلِقُ إِلَى الْجَنَّةِ فَيَعْرِفُ مَنَازِلَهُ بِعَمَلِهِ. قَالَ: وَيُؤْتَى بِالسَّيِّئَاتِ فِي أَفْجَحِ صُورَةٍ فَتُوضَعُ فِي كِفَةِ الْمِيزَانِ فَتُخَفَّفُ، وَالْبَاطِلُ خَفِيفٌ فَيَطْرَحُ فِي جَهَنَّمَ إِلَى مَنَازِلِهِ مِنْهَا وَيُقَالُ لَهُ: الْحَقُّ بِعَمَلِكَ إِلَى النَّارِ. قَالَ: فَيَأْتِي النَّارَ فَيَعْرِفُ مَنَازِلَهُ بِعَمَلِهِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهَا =

فرجحت سيئاته بحسناته؛ ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

موازنين، توزن أعمالك فيها، هذا العدل من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، لا تظلم شيئاً: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَإِنْ ثَقُلْتَ... بِالْخَيْرِ فَازَ وَإِنْ خَفَّتْ فَقَدْ خَسِرَا)؛ ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ⑥ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ⑦ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ⑧ ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: النار يعني، ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٦-٩]؛ أي: النار مأواه.

وقيل: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: أم رأسه، فيهوي على أم رأسه -والعياذ بالله- يهوي على أم رأسه^(١).



= مِنْ أَلْوَانِ الْعَذَابِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَهُمْ أَعْرَفُ بِمَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ بِعَمَلِهِمْ مِنَ الْقَوْمِ فَيَنْصَرِفُونَ يَوْمَ الْجُمُعِ رَاجِعِينَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ.

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٩٦/٢٤)، وزاد المسير (٤٨٤/٤)، وتفسير القرطبي (١٦٧/٢٠)، وتفسير ابن كثير (٤٦٨/٨).

وَأَنَّ بِالْمِثْلِ تُجْزَى السَّيِّئَاتُ كَمَا يَكُونُ فِي الْحَسَنَاتِ الضَّعْفُ قَدْ وَفَّرَا
وَكُلُّ ذَنْبٍ سِوَى الْإِشْرَاكِ يَغْفِرُهُ رَبِّي لِمَنْ شَاءَ وَلَيْسَ الشَّرُّكَ مُغْتَفَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ بِالْمِثْلِ تُجْزَى السَّيِّئَاتُ كَمَا... يَكُونُ فِي الْحَسَنَاتِ الضَّعْفُ قَدْ وَفَّرَا) الجزاء يوم القيامة السيئة بمثلها؛ عدل من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى، السيئة بمثلها، لا يحمل عليه سيئات لم يعملها، فلا يحسب عليه شيء لم يعمله، ولا يضاعف عليه شيء، إنما كل سيئة بمثلها.

وأما الحسنات، فالحسنة بعشر أمثالها، يضاعفها الله؛ فضلاً منه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، هذا فضل من الله جَلَّ وَعَلَا.

أما جزاء السيئات، فهو عدل منه سُبحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، لا يزداد عليه؛ ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾.

وأما من جاء بالحسنة، فله عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله؛ ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكُلُّ ذَنْبٍ سِوَى الْإِشْرَاكِ يَغْفِرُهُ... رَبِّي لِمَنْ شَاءَ وَلَيْسَ الشَّرُّكَ مُغْتَفَرَا) الذنوب هل تغفر أو لا تغفر؟

الذنوب هل يغفرها الله يوم القيامة إذا جاء الإنسان بذنوب؟ أما الشرك، فلا يغفره الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، لا يغفره الله، وأما ما دون الشرك من الكبائر، فهي تحت المشيئة؛ إن شاء الله، غفر لصاحبها، وإن شاء عذبه بقدرها في النار، ثم يخرج من النار، ويدخل الجنة، ولا يخلد في النار إلا المشركون والكفار والمنافقون.

وأما الصغائر، فإن الله يكفرها باجتناب الكبائر؛ ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، ويكفرها الله جلّ وعلا بالصلوات الخمس^(١)، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النُّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ويكفرها الله بالمصائب التي تصيب الإنسان^(٢)، يكفر الله بها خطاياها، فالصغائر من الذنوب لها كفارات كثيرة، لها مكفرات كثيرة.



(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٣٣): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «الْصَّلَاةُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٥٧٢): عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ شَوْكَةٍ فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ».

وَجَنَّةُ الْخُلْدِ لَا تَفْنَى وَسَاكِنُهَا مُخَلَّدٌ لَيْسَ يَخْشَى الْمَوْتَ وَالْكَبِيرَا
أَعَدَّهَا اللَّهُ دَارًا لِلْخُلُودِ لِمَنْ يَخْشَى إِلَهَهُ وَلِلنَّعْمَاءِ قَدْ شَكَرَا
وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ إِلَهِهِ بِهَا كَمَا يَرَى النَّاسُ شَمْسَ الظُّهْرِ وَالْقَمَرَ

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَجَنَّةُ الْخُلْدِ لَا تَفْنَى وَسَاكِنُهَا... مُخَلَّدٌ)، الجنة والنار لا تفتنان، ولا تبيدان، وأهلها مخلدون فيهما؛ فأهل الجنة مخلدون في الجنة، لا يصيبهم الموت، ولا المرض ولا الآفات، ولا يهرمون مع طول بقائهم فيها، على سن واحد، لا يهرمون.

وأما أهل النار -والعياذ بالله-، فإنهم مخلدون فيها، وهي باقية، لا تفتنى ولا تبيد، داران خلقهما الله للبقاء: الجنة والنار، وأهلها مخلدون فيهما. أهل الجنة لا يهرمون، ولا يمرضون، ولا يحزنون، ولا يجوعون؛ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ (١١٨) وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿طه: ١١٨-١١٩﴾، هذه الجنة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (مُخَلَّدٌ لَيْسَ يَخْشَى الْمَوْتَ)، لا يخشى الموت؛ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، التي ذاقوها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْكَبِيرَا)، الهرم يعني، لا يهرم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَعَدَّهَا اللَّهُ دَارًا لِلْخُلُودِ لِمَنْ... يَخْشَى إِلَهَهُ وَلِلنَّعْمَاءِ قَدْ شَكَرَا) أعد الله الجنة للمتقين؛ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، خلقت لهم، هي دار لهم.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَيَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ الْإِلَهِ بِهَا... كَمَا يَرَى النَّاسُ شَمْسَ الظُّهْرِ وَالْقَمَرَ)، من أعظم نعيم أهل الجنة: النظر إلى الله جَلَّ وَعَلَا، ينظرون إليه عيانًا بأبصارهم؛ كما يرون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب^(١)، وكما يرون القمر ليلة البدر، لا يضامون أو لا يتضامون؛ يعني: لا يتزاحمون على رؤيته سبحانه؛ بل كل يراه وهو في مكانه، خلاف الأشياء في الدنيا؛ يتزاحم الناس على الأشياء التي ينظرون إليها، أما الله جَلَّ وَعَلَا، فكل يراه، وهو مرتاح، ليس هناك زحام^(٢).

وأما الكفار، فإنهم يحجبون عن الله، ولا يرونه؛ ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فالمؤمنون لما آمنوا به في الدنيا ولم يروه، جازاهم الله جَلَّ وَعَلَا بأن تجلى لهم يوم القيامة، فيرونه عيانًا بأبصارهم؛ لتقر أعينهم بذلك، وهذا أعظم نعيم يأتي عليهم في الجنة.

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٣)، ومسلم (١٨٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «قَالَ أَنَسٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ».

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٢١١) (٦٣٣) عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَظَرْنَا إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ - يَعْنِي الْبَدْرَ - فَقَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وأما الكفار، لما كفروا بالله في الدنيا، احتجب الله عنهم في الآخرة،
فحرموا من رؤية الله عَزَّوَجَلَّ^(١).



(١) قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: (لَمَّا حَجَبَ قَوْمًا بِالسُّخْطِ، دَلَّ عَلَى أَنَّ قَوْمًا يَرَوْنَهُ بِالرِّضَا).
انظر: تفسير الثعلبي (١٥٤/١٠)، والتفسير البسيط (٣٢٧/٢٣)، وتفسير القرطبي
(٢٦١/١٩)، والبحر المحيط في التفسير (٤٢٩/١٠).

كَذَلِكَ النَّارُ لَا تَفْنَى وَسَاكِنُهَا أَعَدَّهَا اللَّهُ مَوْلَانَا لِمَنْ كَفَرَ
وَلَا يُخَلَّدُ فِيهَا مَنْ يُوحِّدُهُ وَلَوْ بِسَفْكِ دَمِ الْمُعْصُومِ قَدْ فَجَّرَا
وَكَمْ يُنَجِّي إِلَهِي بِالشَّفَاعَةِ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مِنْ عَاصٍ بِهَا سُجَّرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كَذَلِكَ النَّارُ لَا تَفْنَى وَسَاكِنُهَا... أَعَدَّهَا اللَّهُ مَوْلَانَا لِمَنْ كَفَرَ)، ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١].

وهي باقية دائمة، مخلدون فيها، لا يرجون خروجاً منها أبداً، إلا عصاة الموحدين الذين دخلوا، وهم يرجون الخروج منها، فيخرجون منها. وأما الكافر والمشرک والمنافق النفاق الأكبر، فيخلد فيها أبد الآباد، ولا مطمع له في الخروج منها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَا يُخَلَّدُ فِيهَا مَنْ يُوحِّدُهُ)، لا يخلد فيها الموحّد العاصي الذي دخلها بمعصيته كبائر الذنوب دون الشرك؛ إذا شاء الله أن يدخلها، دخلها بقدر ذنوبه، ثم يخرج منها؛ إما بشفاعة الشافعين، وإما برحمة أرحم الراحمين، لكنه لا يخلد فيها بسبب إيمانه وتوحيده، لا يخلد فيها، وقد يشاء الله، فلا يدخلها أصلاً؛ تحت مشيئة الله.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَوْ بِسَفْكِ دَمِ الْمُعْصُومِ قَدْ فَجَّرَا)، ولو بقتل النفس التي حرم الله، فقتل النفس عمداً عدواناً هذه كبيرة من كبائر الذنوب، يدخل بها النار، قد يدخل بها النار، ويعذب، لكنه لا يخلد فيها؛ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ

مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَّأُوهُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣].

﴿خَلِيدًا فِيهَا﴾: ليس معناه الخلود المؤبد، بل إنما طول البقاء فيها ما
شاء الله، ولا يخلد فيها تخليدًا مؤبدًا، ولهذا لم يقل: (خالداً فيها أبداً)، إنما قال:
﴿خَلِيدًا فِيهَا﴾؛ يعني: يبقى فيها ما شاء الله.

ومعنى المعصوم، المعصوم: الذي عصم الله دمه، فالمؤمن عصم الله
دمه: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَاتَوْهَا، عَصَمُوا
مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّهَا»^(١).

فالمؤمن معصوم الدم، ومن قتله، فعليه الوعيد الشديد، ومنه الخلود في
النار، لكنه خلود ليس مؤبداً.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكَمْ يُنَجِّي إِلَهِي بِالشَّفَاعَةِ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مِنْ عَاصِي
بِهَا سُجْرًا)، عصاة الموحدين إذا دخلوا النار، يخرجون منها؛ إما بشفاعة
الشافعين، وإما برحمة أرحم الراحمين؛ يقول: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي
قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»^(٢)، ولا يخلد فيها إلا الكافر.



(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٤)، ومسلم (٢١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري (٢٢، ٦٥٦٠)، ومسلم (٣٠٤، ١٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فصل في الإيمان بالحوض

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَصَلِّ فِي الْإِيمَانِ بِالْحَوْضِ)، ومما يكون في القيامة بعد البعث: الحوض المورود، حوض نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ترد عليه أمته، من شرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبداً^(١).

وهذا الحوض كما جاء وصفه بأنه طوله من صنعاء إلى أيلة في الشام^(٢)، وماءه أشد بياضاً من اللبن، وهو أشد حلاوة من العسل، كيزانه عدد نجوم السماء^(٣)، فهو حوض عظيم لهذا النبي الكريم، ترد عليه أمته، الذين تمسكوا بسنته، وعاشوا عليها، وماتوا عليها.

(١) تواترت الأحاديث في وصف حوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيمن يردده من أمته ومن يُزاد عنه، رويت عن أكثر من خمسين صحابياً، انظر مجموع طرقها ومن رواها من الصحابة في فتح الباري (١١/٤٦٩)، وعمدة القاري (٢٣/١٣٦)، قال الحافظ ابن حجر: (وَلِكَثِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةِ فِي ذَلِكَ زِيَادَةٌ عَلَى الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ كَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسَ وَبْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي سَعِيدٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، وَأَحَادِيثُهُمْ بَعْضُهَا فِي مُطْلَقِ ذِكْرِ الْحَوْضِ، وَفِي صِفَتِهِ بَعْضُهَا، وَفِي مَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِ بَعْضُهَا، وَفِي مَنْ يُدْفَعُ عَنْهُ بَعْضُهَا، وَكَذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي أوردَهَا الْمُصَنِّفُ فِي هَذَا الْبَابِ، وَجُمْلَةُ طُرُقِهَا تِسْعَةٌ عَشَرَ طَرِيقًا، وَبَلَغَنِي أَنَّ بَعْضَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَصَلَهَا إِلَى رَوَايَةِ ثَمَانِينَ صَحَابِيًّا) اهـ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٨٠)، مسلم (٢٣٠٣).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٦) (٢٣٠٠)، عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا آيَةُ الْحَوْضِ؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَبْقَى أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، إِلَّا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخَرًا مَا =

ويأتي أناس من أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريدون الشرب والورود على الحوض، فيزادون عنه، ويمنعون منه، فيقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا رَبَّ أَصْحَابِي، أَصْحَابِي. فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ»^(١)، فهو لاء كانوا من أمته، ثم ارتدوا -والعياذ بالله-، ارتدوا عن الإسلام، وخالفوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيزادون عن الحوض.

الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يعلم ما حصل بعده، فيقول: «سُحْقًا سُحْقًا»؛ إذا قيل له: «لَا تَدْرِي مَاذَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ، فيقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ وَغَيْرَ».

ليس كل من انتسب إلى هذه الأمة، انتسب إلى سنة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون على حق، مجرد الانتساب لا يكفي مع المخالفة في العمل، فلا بد من تحقيق القول بالعمل، وأما من ينتسب بلسانه، ثم يخالف بأفعال، فهذا لا ينفعه الانتساب، ولا يجعله من أمة محمد يوم القيامة، فيعزل هؤلاء، ويطردون -والعياذ بالله!

فعلى المسلم أن يسأل الله الثبات على هذا الدين، والتمسك به على الوجه الصحيح؛ كما جاء عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لئلا يطرد في هذا الموقف العظيم، ويزاد عن حوض الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

=عَلَيْهِ، يَشْحَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرَضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَخْلَى مِنَ الْعَسَلِ».

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٥، ٦٥٧٦)، ومسلم (٣٢) (٢٢٩٧)، من حديث عبد الله بن

وَأَنَّ لِلْمُصْطَفَى حَوْضًا مَسَافَتُهُ مَا بَيْنَ صَنْعَا وَيُصْرَى هَكَذَا ذِكْرًا
 أَهْلَى مِنَ الْعَسَلِ الصَّافِي مَذَاقَتُهُ وَأَنَّ كِيزَانَهُ مِثْلُ النُّجُومِ تُرَى
 وَلَمْ يَرِدْهُ سِوَى أَتْبَاعِ سُنَّتِهِ سِيَمَاهُمْ أَنْ يُرَى التَّحْجِيلُ وَالْغُرَرَا
 وَكَمْ يُنْحَى وَيُنْفَى كُلُّ مُبْتَدِعٍ عَنْ وَرْدِهِ وَرِجَالٌ أَخَذُوا الْغَيْرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ لِلْمُصْطَفَى حَوْضًا مَسَافَتُهُ... مَا بَيْنَ صَنْعَا وَيُصْرَى هَكَذَا ذِكْرًا)، صنعاء في اليمن، وبُصْرَى في الشام، مسافة طويلة، فهذا حوض عظيم، طويل وعريض، ومملوء بالماء؛ فهو حوض عظيم، ولكن لا يرد عليه إلا من كان مسلمًا خالصًا، ويزاد عنه أهل الردة والمخالفة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (كِيزَانُهُ مِثْلُ النُّجُومِ)، كيزانه عدد نجوم السماء^(١)، الكيزان - وهي الكؤوس التي يُشرب بها من هذا الحوض - كثيرة؛ لأن الأمة كثيرة - والله الحمد -، أمة هذا الرسول هي أكثر الأمم، وهو أكثر الأمم أتباعًا يوم القيامة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَمْ يَرِدْهُ سِوَى أَتْبَاعِ سُنَّتِهِ)، لا يردّه إلا أتباع سنته.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (سِيَمَاهُمْ أَنْ يُرَى التَّحْجِيلُ وَالْغُرَرَا)، سيماهم التحجيل في أيديهم وأرجلهم، والغرر في وجوههم؛ بياض من آثار الوضوء، يردون غرًا محجلين من آثار الوضوء، هذه صفتهم^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، مسلم (٢٢٩٢).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٣٥) (٢٤٦) عَنْ نُعَيْمِ الْمُجَمِّرِ، قَالَ: «رَقِيتُ مَعَ أَبِي هُرَيْرَةَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ، فَتَوَضَّأَ، فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ =

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَرَجَالٌ أَحَدُثُوا الْغَيْرَا)؛ «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَاذَا أَحَدُثُوا بَعْدَكَ، إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ»، فيقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك: «سُحْقًا، سُحْقًا»: يعني: بُعدًا، «لِمَنْ بَدَّلَ وَغَيَّرَ»^(١).

لهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ»^(٢).

فأصحاب البدع، وأصحاب الردة هؤلاء لا يردون الحوض على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كانوا في هذه الدنيا ينتسبون ويتلبسون بالإسلام، ويدعون أنهم على الإسلام. فلا بد يوم القيامة أن يفرق بينهم وبين المتمسكين بالإسلام على الحقيقة، فيزال الادعاء، ولم يبق إلا الحقيقة، فليحذر المؤمن أن يبدل وأن يغير؛ لئلا يكون ممن يطرودون يوم القيامة عن هذا الحوض، الذي ترده هذه الأمة من أتباع المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.



= يَقُولُ: «إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ».

(١) سبق تخريجه (ص ٩٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٢، ٤٣)، وأحمد (١٢٦، ١٢٧)، والدارمي (٩٥ - البغا)، وابن حبان: (٥ - الإحسان) من حديث العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَنَّ جِسْرًا عَلَى النَّيِّرَانِ يَغْبُرُهُ بِسُرْعَةٍ مِّنْ لِّمْنَهَا جِ الْهَدَى عَبْرًا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ جِسْرًا عَلَى النَّيِّرَانِ يَغْبُرُهُ... بِسُرْعَةٍ مِّنْ لِّمْنَهَا جِ الْهَدَى عَبْرًا)، مما يكون يوم القيامة من الأهوال: الصراط المنصوب على متن جهنم، وهو القنطرة - الطريق - على متن جهنم، تمر عليه الأمة كلها، وهو أدق من الشعر، وأحر من الجمر، وأدق من السيف؛ لأنه مزلة أقدام، ولا يعبره إلا أهل الإيمان الصادق.

فهذه محنة ثانية بعد الحوض، هناك محنة أخرى شديدة، وهي المرور على الصراط، تجري بهم أعمالهم، لا تجري بقوتك أو بآلة تجري بك، لا، لا يمشيك على هذا الصراط إلا الأعمال الصالحة؛ تجري بهم أعمالهم؛ فمنهم من يمر كالبرق الخاطف - على حسب إيمانهم -، ومنهم من يمر كالريح، منهم من يمر كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كركاب الإبل، ومنهم من يعدو عدواً على قدميه، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يُخطف، فيلقى في جهنم^(١)؛ لأن هذا الصراط عليه كلاليب موكلة بخطف من أمرت بخطفه، تخطفهم، وتلقيهم في جهنم، وهذا مذكور في قوله تعالى:

(١) كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطويل الذي أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، (٧٥٦٣)، ومسلم (١٨٣)، وفيه: «قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَالَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفْلَطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقِيقَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالْرِيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَّابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا».

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا ۖ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًا ۖ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًا ۖ﴾ (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴿[مريم: ٦٨-٧١]، وهو المرور على الصراط.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۖ﴾ (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿[مريم: ٧١-٧٢]، فلا نجاة إلا للمتقين، المؤمنين، المتمسكين بهذا الدين العظيم تمسكًا صحيحًا عن اعتقاد، وعن يقين، وعن محبة وإخلاص، هؤلاء هم الذين ينجون يوم القيامة من هذا الصراط؛ لأن معهم من الأعمال الصالحة ما يحملهم عليه، ومن عداهم، فإنهم يسقطون في جهنم - نسأل الله العافية!



وَأَنَّ إِيْمَانَنَا شَرْعًا حَقِيقَتُهُ قَصْدٌ وَقَوْلٌ وَفِعْلٌ لِلَّذِي أُمِرَا
وَأَنَّ مَعْصِيَةَ الرَّحْمَنِ تَنْقِصُهُ كَمَا يَزِيدُ بِطَاعَاتِ الَّذِي شَكَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَنَّ إِيْمَانَنَا شَرْعًا حَقِيقَتُهُ... قَصْدٌ وَقَوْلٌ وَفِعْلٌ لِلَّذِي أُمِرَا)، الإِيْمَان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح^(١)، فمن حقق هذا الإِيْمَان، فإنه يعبر على هذا الصراط.

«قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح»، لا يكفي القول باللسان دون اعتقاد القلب، وهذه صفة المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

(١) وقد نقل الإجماع على ذلك أكثر من واحد من أهل العلم، فقد قال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ: (لقد طفت الأمصار، ولقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم كلهم يقول: الإِيْمَان قول وعمل يزيد وينقص) اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (١٧٣/١)، (١٧٤)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٢/٥٨، ٥٩)، والذهبي في سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٧، ٤٠٨)، وذكره السبكي في طبقات الشافعية الكبرى (٢/٢١٧)، وابن حجر في الفتح (٤٧/١).

وقال أيضًا: (كتبت عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإِيْمَان قول وعمل) اهـ. أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٨٨٩/٥)، وذكره ابن حجر في الفتح (٤٧٩/١).

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع عن الشافعي، انظر: مجموع الفتاوى (٣٠٨/٧). وقال ابن عبد البر في التمهيد (٩/٢٣٨): (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإِيْمَان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإِيْمَان عندهم يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إِيْمَان) اهـ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾
 يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَتُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ فِي
 قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾
 [البقرة: ٨-١٠]، هؤلاء المنافقون، يقولون بالستتهم: (آمنا بالله).

ولا يكون الإيمان باعتقاد القلب دون نطق اللسان، لا يكون باعتقاد القلب وتصديق القلب دون نطق اللسان؛ لأن الكفار كلهم يعترفون بأن هذا الرسول هو رسول الله حقاً، ولكن يمنعهم موانع؛ يمنعهم الحمية الجاهلية، يمنعهم الكبر، يمنعهم طمع الدنيا والمناصب، فلا ينطقون بالستتهم، وإن كانوا يؤمنون بقلوبهم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾، هم مقرون بقلوبهم، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَعَاثَ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

أبو طالب عم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مؤمناً به في قلبه، مصداقاً له في قلبه، ولكنه أبى أن ينطق بلسانه ويصرح، ومات على ذلك، والذي حمله هو الحمية لدين آبائه، ولما حضرته الوفاة، جاءه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول له: «يَا عَمُّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، كان عنده رجلان من صناديد المشركين، فقالا له: «أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟!»، فأعاد عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعاداً، في النهاية قال: «هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»^(١)،

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤): عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ، «أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «أَيُّ عَمٍّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ =

ومات، ولم يقل: «لا إله إلا الله»، ومات على الكفر - والعياذ بالله -، مع أنه معترف بقلبه أنه رسول الله، يقول هو^(١):

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِدَارُ مَسْبَةِ لَوَجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَاكَ مُبِينًا
منعته الحمية لدين آبائه، ومات على الكفر، مع أنه مصدق بقلبه،
يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا
لم ينفعه ذلك الاعتراف بالقلب، فليس الإيمان بالقلب فقط، ثم ليس
الإيمان باللسان والقلب بدون الأعمال - كما تقوله المرجئة^(٢) -، لا بد من
الأعمال؛ يقول بلسانه، ويعتقد بقلبه، ويعمل بجوارحه.
وأما إذا لم يعمل، وترك العمل من غير عذر، ترك الفرائض، ترك أركان
الإسلام من غير عذر، فهذا ليس بمؤمن إلا عند المرجئة، الذين يقولون:
(الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب)، وينفون أن العمل من الإيمان.

= كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ»
فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى
قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا
تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [الفصص: ٥٦].

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٥٦)، وسمط النجوم العوالي (١/ ٣٩٤)، والإصابة في تمييز
الصحابة (٧/ ١٩٨).

(٢) المرجئة: قيل من الإرجاء أي: من التأخير لأنهم أخرجوا العمل عن مسمى الإيمان، وقيل
من الرجاء لأنهم يقولون لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم فرق
شتى. انظر: (مقالات الإسلاميين) (ص ١٣٢)، و(الفرق بين الفرق) (ص ١٩٠).

بعضهم يقول: (مكمل للإيمان)، وبعضهم يقول: (إنه ليس بضروري)، هذا مذهب باطل بلا شك، الله جَلَّ وَعَلَا يقول في كثير من الآيات: ﴿ءَامِنُوا وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البينة: ٧]، لم يكتف بقول: ﴿ءَامِنُوا﴾، قال: ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البينة: ٧].

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً. أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً. أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، هذا النطق، «وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»، هذا العمل، إِمَاطَةُ الْأَذَى عمل، وهي من الإيمان، «وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١)، الإيمان عمل قلبي، فدل هذا الحديث على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد؛ كما في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ② الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ③ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ④ [الأنفال: ٢-٤]، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوحِهِمْ خَفِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٥٧) (٣٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢﴾ [المؤمنون: ١-١١]، هذه صفات المؤمنين، لم
يكتف بأَنهم آمنوا، بل جاء بصفاتهم وأعمالهم.

فالإيمان - كما قال الحسن البصري رحمه الله -: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّخَلِّي وَلَا
بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَّ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ»^(١).

وكذلك الإيمان يزيد بالطاعة؛ ﴿زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، ﴿أَيْكُمُ
زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾
[التوبة: ١٢٤]، فهو يزيد، وينقص، حتى يكون مثل مثقال حبة خردل، «مَنْ رَأَى
مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَلْيَسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَلْيَقْلِبْهُ،
وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيْمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»^(٢).

فدل على أنه ينقص حتى يكون بمقدار حبة الخردل.

وفي الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: «أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ
فِي قَلْبِهِ أَذَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، دل على أن هذا إيمان ضعيف،
﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيْمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، يضعف الإيمان
حتى يصير قريباً من الكفر.

فليس القول بأن الأعمال ليست من الإيمان قول أهل السنة والجماعة،
وإنما هو قول المرجئة الضلال.

(١) انظر: الزهد والرقائق لابن المبارك (١/ ٥٤٥)، والإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٨٠٥)،
وغريب الحديث للخطابي (٣/ ١٠١)، وشعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٥٨).
(٢) أخرجه مسلم (٨٠) (٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ إِيْمَانَنَا شَرْعًا حَقِيقَةً)، هذا تعريف الإِيْمَانِ شَرْعًا.

أما تعريف الإِيْمَانِ في اللغة: الإِيْمَانُ هو التصديق^(١)، لكن الحقيقة الشرعية للإِيْمَانِ: هي أنه قول واعتقاد وعمل، تسمى الحقيقة الشرعية؛ لأن الحقائق ثلاث: حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عرفية^(٢).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَصْدٌ وَقَوْلٌ وَفِعْلٌ لِلَّذِي أُمِرَ)، قصدٌ: هذا اعتقاد القلب.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ مَعْصِيَةَ الرَّحْمَنِ تُنْقِصُهُ... كَمَا يَزِيدُ بِطَاعَاتِ الَّذِي شَكَرَ)، معصية الرحمن تنقص الإِيْمَانِ؛ فهو ينقص بالمعاصي، ويزيد بالطاعات.



(١) انظر: لسان العرب (٢١/١٣)، ومقاييس اللغة (١/١٣٣)، ومختار الصحاح (ص ١١)، والنهاية في غريب الحديث (١/٦٩). وانظر مبحث في معنى الإِيْمَانِ في اللغة في: كتاب الإِيْمَانِ الأوسط (ص ٧٧) لشيخ الإسلام ابن تيمية، والإِيْمَانِ الكبير (ص ٢٧٥ وما بعدها).

(٢) انظر: الأنجم الزاهرات على حل ألفاظ الورقات (١/١١٢).

وَأَنَّ طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ وَاجِبَةٌ مِنْ الْهُدَاةِ نُجُومِ الْعِلْمِ وَالْأَمْرِ
إِلَّا إِذَا أَمَرُوا يَوْمًا بِمَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَيُلْغَى أَمْرُهُمْ هَدْرًا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ وَاجِبَةٌ)، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فقرن طاعة أولي الأمر مع طاعته وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾؛ يعني: من المسلمين، فما دام ولي الأمر مسلماً، لم يخرج من الإسلام، يجب طاعته، وإن كان عاصياً أو مفرطاً، مادام لم يصل إلى حد الكفر، فهو مسلم تجب طاعته؛ لأجل جمع الكلمة، ولأجل حقن الدماء، ولأجل توفير الأمن، إلى غير ذلك من المصالح، فتجب طاعة ولادة أمور المسلمين.

﴿وَأُولِي الْأَمْرِ﴾: المراد بهم الأمراء والعلماء؛ فالأمراء من جهة السياسة والتدبير والأوامر، والعلماء من جهة الدين ومعرفة الأحكام الشرعية، فيطاعون فيما بينوه من الشريعة، لا يأتون بشيء من عندهم، يأتون بالشريعة، ويبينونها للناس، تجب طاعتهم فيما بينوه في شريعة الله عَزَّجَلَّ.

فالأمراء يطاعون من ناحية السياسة والتنفيذ، والعلماء يطاعون من جهة البيان - بيان الأحكام الشرعية وتوضيحها للناس -، فهم من أولي الأمر.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (مِنْ الْهُدَاةِ نُجُومِ الْعِلْمِ وَالْأُمَرَاءِ)، نجوم العلم والأمرء
يعني: هم ولاة الأمور، العلماء والأمرء ولاة الأمور؛ هؤلاء من ناحية الدين
والعلم، وهؤلاء من ناحية السياسة والتنفيذ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِلَّا إِذَا أُمِّرُوا يَوْمًا بِمَعْصِيَةٍ)، «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ
الْخَالِقِ»^(١)؛ كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي
الْمَعْرُوفِ»^(٢)، لكن ليس معنى ذلك أن ولي الأمر إذا أمر بمخالفة أنه ينخلع
من الولاية، بل لا يطاع في هذه المعصية فقط، ويطاع فيما عداها؛ لأن بعض
أهل الضلال أو الجهال يأخذون من هذا أنه إذا أمر بمعصية، فإنه تنخلع
ولايته، ولا طاعة له مطلقاً، لا، هذا ضلال، لكن لا يطاع في المعصية، ويطاع
فيما عداها؛ لأن ولايته منعقدة، فلا تبطل ولايته بمعصية أمر بها، لكننا
لا نطيعه فيها، ونطيعه فيما عداها مما لم يعص الله فيه.



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٥٤٥/٦)، والخلال في السنة (١١٣/١)، من حديث
الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورفع الطبراني من طريق الحسن عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الكبير
(١٧٠/١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَنَّ أَفْضَلَ قَرْنٍ لِلَّذِينَ رَأَوْا نَبِيَّنَا وَبِهِمْ دِينُ الْهُدَى نُصِرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَأَنَّ أَفْضَلَ قَرْنٍ لِلَّذِينَ رَأَوْا... نَبِيَّنَا وَبِهِمْ دِينُ الْهُدَى نُصِرَا)، أفضل قرون هذه الأمة هم صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم تشرّفوا برؤية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعلموا على يده، وجاهدوا معه، وصلوا خلفه، فهم أفضل قرون هذه الأمة.

تحمّلوا العلم عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تحمّلوا القرآن والسنة عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم أفضل قرون هذه الأمة -ولا يطعن فيهم إلا أهل الضلال وأهل الزيغ-، صحابة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم من بعدهم: التابعون، وهم الذين عاصروا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وتعلموا منهم، يقال لهم: التابعون، ثم من بعد التابعين: القرن الثالث أتباع التابعين، وكل ما قرب من قرن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو أفضل.

فأفضل القرون الذين أثنى عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ»^(١)؛ يعني: التابعين، «ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ» من أتباع التابعين. قال الراوي: «لَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنَيْ، أَوْ ثَلَاثَةً».

القرون المفضلة إلى المائة الرابعة، هؤلاء هم القرون المفضلة، وبعدهم حصل ما حصل من الفتن والشور، وحصل ما حصل من التحريف والتغيير.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

ولكن الحق باق - والله الحمد-، الحق باق، والسنة باقية إلى أن تقوم الساعة، وعليها طائفة لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(١).

لكن خير القرون هم القرون المفضلة، الذين فيهم العلم والإيمان والجهاد، ولم تظهر الفتن في وقتهم، كانت توجد فتن، لكن خفية ومجموعة، المبتدعة لم يظهروا في القرون المفضلة مع وجودهم، لكنهم مقموعون، فلما انتهت القرون المفضلة، ظهرت المبتدعة وأهل الضلال؛ لأن القمع قلّ وضعف بعد القرون المفضلة.



(١) أخرجه بهذه الزيادة: أبو داود (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣٩٥٢)، وأحمد (٢٧٨/٥) عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «وَأَتَمَّا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَيُّمَةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تُعْبَدَ فِتْنًا مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانُ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيُّهُمْ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». وأصله في مسلم (٢٨٨٩).

أَغْنِي الصَّحَابَةَ رُهْبَانٌ بَلِيلِهِمْ وَفِي النَّهَارِ لَدَى الْهَيْجَا لُيُوثُ شَرَى
وَحَيْرُهُمْ مَنْ وَلِيَ مِنْهُمْ خِلَافَتَهُ وَالسَّبْقُ فِي الْفَضْلِ لِلصَّدِيقِ مَعَ عُمَرَ

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَغْنِي الصَّحَابَةَ رُهْبَانٌ بَلِيلِهِمْ... وَفِي النَّهَارِ لَدَى الْهَيْجَا لُيُوثُ شَرَى) في النهار يجاهدون في سبيل الله، ويحملون السيوف في المعركة؛ نصرة لهذا الدين، وفي الليل يتعهدون ويقرؤون القرآن، هذه صفتهم: رهبان بالليل، شجعان في سبيل الله في النهار، ليس عندهم فراغ؛ ليلهم تهجد وتلاوة، ونهارهم جهاد في سبيل الله، هؤلاء هم خير القرون.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَحَيْرُهُمْ مَنْ وَلِيَ مِنْهُمْ خِلَافَتَهُ... وَالسَّبْقُ فِي الْفَضْلِ لِلصَّدِيقِ مَعَ عُمَرَ)، خير الصحابة: الخلفاء الأربعة؛ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، الخلفاء الراشدون، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أصحاب بدر، ثم أصحاب بيعة الرضوان، ثم الذين أسلموا قبل الفتح - قبل فتح مكة -، ثم الذين أسلموا بعد الفتح. كلهم صحابة، لكنهم يتفاضلون؛ بعضهم أفضل من بعض؛ لسابقته، وبجهاده، وبعلمه، يتفاضلون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

والمهاجرون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أفضل من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن المهاجرين تركوا أموالهم وأوطانهم، وخرجوا بإيمانهم، فارين بدينهم إلى غير بلادهم لنصرة هذا الدين، ولأجل التمسك به، والفرار به من الفتن؛ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ

وَرِضُونَا وَيَضُرُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ [الحشر: ٨]، ثم ذكر الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾: المدينة يعني.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، هؤلاء هم الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ثم ذكر الذين يأتون من بعدهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: من هذه الأمة؛ يترحمون عليهم، ويشنون عليهم، ويدعون لهم، ويطرون عنهم، ويسألون الله ألا يجعل في قلوبهم بغضاً لأحد منهم.

ولكن من يلعن صحابة رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أو يسب صحابة رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والله جلّ وعلا يقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠]، وهؤلاء يقولون: (اللهم العن صحابة رسول الله، اللهم العن صلمي قريش: أبا بكر وعمر)، هؤلاء -والعياذ بالله- يدعون أنهم مسلمون، وهذا موقفهم من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَفَقَّ مِثْلَ أُحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدًّا أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ»^(١)، وهؤلاء يسبون صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).

وَالتَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ لَهُمْ وَكَذَا
وَوَاجِبُ ذِكْرٍ كُلِّ مِنْ صَحَابَتِهِ
فَلَا تَخْضُ فِي حُرُوبٍ بَيْنَهُمْ وَقَعَتْ
وَالْإِقْتِدَاءُ بِهِمْ فِي الدِّينِ مُفْتَرَضٌ
أَتْبَاعُ أَتْبَاعِهِمْ مِمَّنْ قَفَا الْأَثَرَا
بِالْخَيْرِ وَالْكَفِّ عَمَّا بَيْنَهُمْ شَجَرَا
عَنْ اجْتِهَادٍ وَكُنْ إِنْ خُضْتَ مُعْتَذِرَا
فَاقْتَدِ بِهِمْ وَاتَّبِعِ الْآثَارَ وَالسُّورَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالتَّابِعُونَ بِإِحْسَانٍ لَهُمْ)، التابعون لهم بإحسان، ليس بالدعوة فقط، ولكن بإحسان؛ معرفة بمذهبهم، وتمسكاً به، هذا الإحسان، فالإحسان هو: الإتيان.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَكَذَا أَتْبَاعُ أَتْبَاعِهِمْ مِمَّنْ قَفَا الْأَثَرَا)؛ يعني: أتباع التابعين، القرون الأربعة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَوَاجِبُ ذِكْرٍ كُلِّ مِنْ صَحَابَتِهِ... بِالْخَيْرِ وَالْكَفِّ عَمَّا بَيْنَهُمْ شَجَرَا)، واجب الثناء عليهم، والدعاء لهم، والاستغفار والترضي عنهم، هذا من حقهم علينا.

ولا ندخل فيما حصل بينهم من الشجار والفتن؛ لأنهم معذرون؛ إما مجتهدون مصيئون، ولهم أجران، وإما مجتهدون مخطئون، ولهم أجر واحد.

ولهم من السوابق والفضائل ما يكفر ما يحصل من بعضهم من خطأ، مغمورة أخطائهم بفضائلهم رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ، مغمورة جداً - إن وجدت -، وأكثرها

مكذوب، ما ذُكِرَ في التاريخ؛ إما مكذوب، وإما أنه واقع وهم فيه. فهم معذرون ما بين مجتهد مصيب، وما بين مجتهد مخطئ معذور باجتهاده.

ولهم من الفضائل، ولهم من السوابق، ولهم من الخير الذي قدموه ما يكفر ما يحصل من بعضهم - إن حصل - من خطأ بسيط - رضي الله عنهم وأرضاهم^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَا تَخْضُ فِي حُرُوبٍ بَيْنَهُمْ وَقَعَتْ... عَنِ اجْتِهَادٍ وَكُنْ إِنْ خُضْتَ مُعْتَذِرًا)، أول شيء: لا تخص، ولا تدخل في هذا، كف عن هذا، وإذا دخلت، فاعتذر عنهم، واثني عليهم، والتمس لهم العذر، وهم معذرون عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لكن بعض الناس يقول: (هذا بحث تاريخي وبيان للحقائق)، ويدخل في صحابة رسول الله، ويذم من يذم، يتبع الأخبار الكاذبة التي دست عليهم، ويتبعها، وينشرها، هذا ضلال - والعياذ بالله -، هذا ضلال.

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ هَذِهِ الْأَثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيمِ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُبِرَ عَنْ وَجْهِهِ وَالصَّحِيحُ مِنْهُ: هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ وَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفَرَةَ مَا يَصُدُّ مِنْهُمْ إِنْ صَدَرَ حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ). انظر: العقيدة الواسطية ضمن مجموع الفتاوى (٣/ ١٥٥).

إذا تكلمنا في خيار الأمة، فماذا بقي؟! إذا تكلمنا في خيار الأمة - صحابة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ماذا بقي لنا؟! هم الذين قادونا، وهم الذين نفتدي بهم، وهم الذين حملوا إلينا هذا العلم وهذا الخير، إذا طعنَّا بهم، وتكلمنا فيهم، فماذا بقي للأمة، إذا طُعن في قادتها وعلمائهم وصحابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!!

فلا يجوز للإنسان أن يدخل في هذه الأمور، وإن مرت عليه، فيعتبرها من الخطأ المغفور، أو من الاجتهاد المصيب الذي له أجران.



وَتَرَكُ مَا أَحَدَثَهُ الْمُحَدِّثُونَ فَكَمْ ضَلَالَةٍ تَبِعَتْ وَالِدَيْنُ قَدْ هُجِرَا
 إِنَّ الْهُدَى مَا هَدَى الْهَادِي إِلَيْهِ وَمَا بِهِ الْكِتَابُ كِتَابَ اللَّهِ قَدْ أَمَرَا
 فَلَا مِرَاءَ وَمَا فِي الدِّينِ مِنْ جَدَلٍ وَهَلْ يُجَادِلُ إِلَّا كُلُّ مَنْ كَفَرَا
 فَهَآكْ فِي مَذْهَبِ الْأَسْلَافِ قَافِيَةٌ نَظْمًا بَدِيعًا وَجِيزًا لِلْفُضِّ مُخْتَصَرَا
 يَحْوِي مُهِمَّاتِ بَابٍ فِي الْعَقِيدَةِ مِنْ رِسَالَةِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الَّذِي اشْتَهَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَتَرَكُ مَا أَحَدَثَهُ الْمُحَدِّثُونَ)؛ اترك ما أحدثه المحدثون بعد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ما أحدثوه في حق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وما أحدثوه في هذا الدين من البدع والضلالات، وارجع إلى الأصل الصافي، وهو كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعمل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين والقرون المفضلة، ارجع إلى هذا، واترك ما يحصل فيما بعد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَكَمْ ضَلَالَةٍ تَبِعَتْ وَالِدَيْنُ قَدْ هُجِرَا)؛ لأن الإنسان إذا تبع البدع، ترك السنة، وهذا شيء معلوم.

لا يمكن أبداً أن يجمع بين سنة وبدعة، لا بد أن تخرج إحداها الأخرى؛ إما أن يكون مبتدعاً، وإما أن يكون مستنّاً بالسنة، ولا يجتمعان أبداً.

يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»، البدع كلها ضلالات، والذي يقول: (إن البدع تنقسم إلى قسمين: بدع حسنة، وبدع سيئة)، كذاب، مخالف لقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ».

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّ الْهُدَى مَا هَدَى الْهَادِي إِلَيْهِ وَمَا بِهِ الْكِتَابُ كِتَابُ اللَّهِ قَدْ أَمَرَ)، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ»^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَا مِرَاءَ وَمَا فِي الدِّينِ مِنْ جَدَلٍ وَهَلْ يُجَادِلُ إِلَّا كُلُّ مَنْ كَفَرَ)، لا يجوز الجدل في الدين، والجدال في القرآن، والجدال في سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنها حق، يجب التسليم لها والانقياد لها، لا يجوز الجدل فيها والممازاة فيها أبداً، ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]: هذا كفر - والعياذ بالله -، الواجب التسليم والانقياد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَهَاكَ): خلاصة المنظومة يعني.



(١) هذه خطبة الحاجة التي كان يقولها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يدي حاجته، أخرجهما مسلم مختصرة من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٨٦٧)، ومن حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (٨٦٨)، ووردت مطولة ومختصرة من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الإمام أحمد في المسند (١/٣٩٢، ٣٩٣)، وأبي داود في سننه (١٠٩٧)، والترمذي في سننه (١١٠٥)، والنسائي في الكبرى (١/٥٥٠)، (٣/٤٤٩)، وابن ماجه (١٨٩٢)، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ شرح لها في جزء لطيف، طبعته دار الأضحي بالأردن.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَوْلَانَا وَنَسَأَلُهُ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى مَنْ عَمَّ بَعَثَتْهُ
وَدِينُهُ نَسَخَ الْأَدْيَانَ أَجْمَعَهَا
مُحَمَّدٍ خَيْرِ كُلِّ الْعَالَمِينَ بِهِ
وَلَيْسَ مِنْ بَعْدِهِ يُوحَى إِلَى أَحَدٍ
وَالْأَلِ وَالصُّخْبِ مَا نَاحَتْ عَلَى فَنَنْ
غُضْرَانِ مَا قَلَّ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا كَثُرَا
فَأَنْذَرَ الثَّقَلَيْنِ الْجَنِّ وَالْبَشَرَا
وَلَيْسَ يُنْسَخُ مَا دَامَ الصِّفَا وَحِرَا
خَتَمَ النَّبِيِّينَ وَالرُّسُلِ الْكِرَامِ جَرَا
وَمَنْ أَجَارَ فَحَلَّ قَتْلُهُ هَدْرَا
وَرَقَا وَمَا غَرَّدَتْ قُمْرِيَّةٌ سَحَرَا

الشرح

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَدِينُهُ نَسَخَ الْأَدْيَانَ أَجْمَعَهَا)، دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَخَ
الأديان السابقة، وصرا الحكم لدين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَيْسَ يُنْسَخُ مَا دَامَ الصِّفَا وَحِرَا)، ما دام الصِّفَا وَحِرَا:
جبلان في مكة.

يجب على الجن والإنس والثقلين اتباعه، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ رَسُولُ
اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فلم
يبق إلا دين محمد، لا أحد يتمسك بالأديان القديمة -دين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ،
أو دين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ-؛ لأنها انتهى دورها، وجاء دور الدين الخاتم، وهو
دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والأنبياء أوصوا باتباع محمد إذا بُعِثَ؛ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا
ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾:
يعني: محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ﴿﴾، ماذا؟ ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: بعد بعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٢]: خارجون عن طاعة الله؛ لأن الفسق معناه: الخروج، خارجون عن طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإن زعموا أنهم على دين النبي السابق موسى عَلَيْهِ السَّلَام، دين موسى عَلَيْهِ السَّلَام دين حق، لكنه انتهى ببعثة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَيْسَ يُنْسَخُ مَا دَامَ الصَّفَا وَحِرًّا)، لا ينسخ دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن تقوم الساعة.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (مُحَمَّدٌ خَيْرُ كُلِّ الْعَالَمِينَ بِهِ خَتَمُ النَّبِيِّينَ وَالرُّسُلِ الْكَرِيمِ جَرًّا)، هو خاتم النبيين؛ كما في القرآن: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، هو آخر النبيين، ولا يأتي بعده نبي، فمن ادعى النبوة بعده، فهو كاذب، يجب تكذيبه، ومن صدقه، فهو كافر، من صدق المتنبيين بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو كافر. الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَنَا خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي»^(٢).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والدارمي في سننه (٤٣٦)، وأبو يعلى (٤/ ١٠٢)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ١١٣)، وابن أبي شيبة (٢٦٤٢١)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٢٠٠) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٧٨)، والحاكم في المستدرک (٤/ ٤٩٦) من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، وأصل حديث ثوبان رواه مسلم (٢٨٨٩)، وليس فيه الشاهد.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَلَيْسَ مِنْ بَعْدِهِ يُوحَىٰ إِلَى أَحَدٍ)، انقطع الوحي بموته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانتهى الأمر بأن الوحي تكامل، والشرعة تكاملت، وترك أمته على البيضاء؛ ليلها كنهارها^(١)، فلا حاجة إلى بعثة نبي جديد، ولا حاجة إلى شريعة جديدة، تكفي نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتكفي شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَمَنْ أَجَازَ فَحَلَّ قَتْلُهُ هَدْرًا)؛ يعني: من أجاز أن يبعث نبي بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه مرتد عن الإسلام، يجب قتله، ولذلك قاتل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ المتنبئين، قاتلوا مسيلمة، وقتلوه، والأسود العنسي قتله المسلمون في اليمن، ويجب قتل المدعي للنبوة.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد في المسند (١٢٦/٤)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٦/١)، والطبراني في الكبير (٢١٩، ٢٤٢)، وفي مسند الشاميين (٣/١٧٢، ١٧٣)، والحاكم في المستدرک (١/١٧٥)، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/١١٦)، ولفظه: «لَقَدْ تَرَكْتُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارَهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا» من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهرس المراجع

- ✽ الإبانة الكبرى لابن بطة، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
- ✽ إثبات صفة العلو، المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، المحقق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م، عدد الأجزاء: ١
- ✽ الأسماء والصفات للبيهقي، مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ٢
- ✽ الإصابة في تمييز الصحابة، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥هـ، عدد الأجزاء: ٨
- ✽ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب. دار الآفاق الجديدة بيروت الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
- ✽ الأعلام، المؤلف: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢م.
- ✽ الأنجم الزاهرات على حل ألفاظ الورقات في أصول الفقه، المؤلف: شمس الدين محمد بن عثمان بن علي المارديني الشافعي (المتوفى:

٨٧١هـ)، المحقق: عبد الكريم بن علي محمد بن النملة، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١.

✽ الإيوان الأوسط لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق أبي يحيى، محمود أبو سن. دار طيبة، الرياض.

✽ الإيوان الكبير، شيخ الإسلام ابن تيمية. المكتب الإسلامي.

✽ البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

✽ البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.

✽ البداية والنهاية، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

✽ بدائع الفوائد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، عدد الأجزاء: ٤

✽ تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي، تحقيق عمر تدمري، طبعة ١٤٠٩هـ.

✽ تاريخ بغداد، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد

معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، عدد الأجزاء: ١٦.

✽ تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٥م.

✽ التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

✽ التعريفات، المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، عدد الأجزاء: ١

✽ التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

✽ تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا.

✽ التفسيرُ البسيطُ، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ، عدد الأجزاء: ٢٥ (٢٤ جزء للفهارس).

- ❖ تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد ابن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، عدد الأجزاء: ٢٦ مجلد ٢٤ مجلد ومجلدان فهارس.
- ❖ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، عدد الأجزاء: ٨.
- ❖ تفسير عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.
- ❖ التمهيد، يوسف بن عبد الله بن عبد البر، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، طبعة ١٣٨٧ هـ.
- ❖ تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار القومية العربية، مصر.
- ❖ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط -

إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد).

✽ الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، عدد الأجزاء: ٢٠ جزءاً (في ١٠ مجلدات).

✽ جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام
✽ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

✽ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق، عدد الأجزاء: ١١.

✽ الدرر السنية في الأجوبة النجدية، المؤلف: علماء نجد الأعلام، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، عدد الأجزاء: ١٦.

✽ الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن

قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت،
عدد الأجزاء: ١

✽ زاد المسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي، المكتب الإسلامي،
بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ.

✽ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف:
أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم،
الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر
والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: ٦،
عام النشر: ج ١ - ٤: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ج ٦: ١٤١٦ هـ -
١٩٩٦ م، ج ٧: ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

✽ سمط النجوم العوالي، عبد الملك بن عبد الملك الشافعي، تحقيق: عادل
أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض. دار الكتب العلمية، بيروت
١٤١٩هـ.

✽ السنة لابن أبي عاصم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب
الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

✽ سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

✽ سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت.

✽ سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي،
تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤ هـ.

✽ سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، بيروت.

✽ سنن الدارقطني، تحقيق السيد عبد الله هاشم المدني، دار المعرفة، بيروت.

✽ سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ.

✽ السنن الصغرى للبيهقي، تحقيق: محمد ضياء الرحمن الأعظمي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ.

✽ السنن الصغرى للنسائي (المجتبى)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات، حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦ هـ.

✽ السنن الكبرى للنسائي، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.

✽ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٣ هـ.

✽ شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.

✽ شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، طبعة ١٤٠٢ هـ.

✽ شرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩١ هـ.

✽ الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، مطابع الأشراف، لاهور.

✽ شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

✽ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، عدد الأجزاء: ١.

✽ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم، تحقيق محمد بدر الدين الحلبي، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٨هـ.

✽ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٦.

✽ صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

✽ صحيح البخاري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

✽ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

✽ طبقات الشافعية الكبرى، المؤلف: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (المتوفى: ٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح

محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ، عدد الأجزاء: ١٠.

✽ العرش وما رُوي فيه، المؤلف: أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسي (المتوفى: ٢٩٧هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، عدد الأجزاء: ١.

✽ العظمة، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: ٣٦٩هـ)، المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨، عدد الأجزاء: ٥.

✽ العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ١.

✽ العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَائِمَاز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: طبعته مكتبة أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، عدد الأجزاء: ١.

✽ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت.

✽ الفردوس بمأثور الخطاب، المؤلف: شيرويه بن شهردار بن شيرويه ابن فناخسرو، أبو شجاع الديلمي الهمداني (المتوفى: ٥٠٩هـ)، المحقق: السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م، عدد الأجزاء: ٥.

✽ الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧ م.

✽ فوات الوفيات والذيل عليها، لمحمد بن شاکر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

✽ كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، الناشر: مكتبة الرشد - السعودية - الرياض، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ٢

✽ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١٠

✽ لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، دار صادر - بيروت،

الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، عدد الأجزاء: ١٥

✽ المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦.

✽ مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.

✽ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق ابن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

✽ مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

✽ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد ابن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب

العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، عدد الأجزاء: ٢

✽ المدخل إلى السنن الكبرى، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرَوُجَردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨ هـ)، المحقق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت، عدد الأجزاء: ١.

✽ المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ.

✽ مسند أبي داود الطيالسي، لسليمان بن داود بن الجارود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.

✽ مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ.

✽ مسند أحمد بن حنبل - النسخة المحققة بإشراف شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤١٩ هـ.

✽ مسند البزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، المدينة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ.

✽ مسند الشاميين، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠ هـ)، المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٤، عدد الأجزاء: ٤

✽ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد).

✽ مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

✽ مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

✽ معارج القبول، حافظ بن أحمد حكمي، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

✽ المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن ابن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، طبعة ١٤١٥هـ.

✽ المعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق محمد شكور، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

✽ المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

✽ المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، الناشر: دار الدعوة.

✽ معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٤٢٢هـ.

✽ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، أبو الحسن علي الأشعري، تحقيق هلموت ريتز، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا).

✽ الملل والنحل، للشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.

✽ موطأ الإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث، مصر.

✽ ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق علي عوض، وعادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

✽ النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، الناشر المكتبة العلمية، سنة النشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، بيروت، عدد الأجزاء ٥.

✽ الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، طبعة ١٤٢٠هـ.

✽ وفيات الأعيان وأنباء أبناء زمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان.



فهرس الموضوعات

- مُقَدِّمَةُ النَّاشِرِ..... ٥
- نظم مقدمة الرسالة..... ٧
- بَابُ مَا تَعْتَقِدُهُ الْقُلُوبُ وَتَنْطِقُ بِهِ الْأَلْسُنُ مِنْ وَاجِبِ أُمُورِ الدِّيَانَاتِ.... ١٥
- أول واجب على العبد أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله... ١٥
- الإله: هو المعبود، والألوهية: العبادة..... ١٨
- الموجد للأشياء هو المستحق أن يعبد وحده لا شريك له..... ١٩
- الله جَلَّ وَعَلَا هُوَ الْمُنَزَّهُ عَنْ وُلْدٍ وَصَاحِبَةٍ وَوَالِدٍ..... ٢٠
- لا يحيط أحدٌ بصفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى..... ٢٣
- الصفات معلومة المعنى، مجهولة الكيفية..... ٢٣
- الكلام من صفات الله عَزَّجَلَّ..... ٢٨
- الكرسي والعرش..... ٣١
- العلو، والاستواء على العرش من صفات الله عَزَّجَلَّ..... ٣٤
- العلو صفة ذاتية لله عَزَّجَلَّ..... ٣٤
- الاستواء صفة فعلية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى..... ٣٥

- الله جَلَّ وَعَلَا يعلم كل شيء، لا يخفى عليه شيء..... ٣٩
- أسماءه وصفاته لازمة لذاته سبحانه، ليست محدثة..... ٤١
- من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الكلام..... ٤٢
- مذهب أهل السنة؛ أن القرآن كلام الله، منزل غير مخلوق..... ٤٨
- القرآن وحي من الله، ألقاه إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَام، ثم بلغه إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... ٥٠
- فَصْلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ..... ٥٧
- الإيمان والهداية والأعمال الصالحة إنما هي فضل من الله..... ٦٢
- فَصْلٌ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ وَفِتْنَتِهِ..... ٦٣
- فَصْلٌ فِي الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْجُزَاءِ..... ٧١
- الجنة والنار لا تفيان، ولا تبیدان..... ٨٨
- فَصْلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالْحَوْضِ..... ٩٣
- مما يكون يوم القيامة من الأهوال: الصراط..... ٩٧
- الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح..... ٩٩
- تعريف الإيمان لغة وشرعاً..... ١٠٤
- طاعة ولاة الأمور واجبة..... ١٠٥
- أفضل قرون هذه الأمة هم صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ..... ١٠٧
- تفاضل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..... ١٠٩

- وجوب السكوت عما جرى بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ..... ١١١
- ترك المراء والجدال في الدين..... ١١٤
- دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسخ الأديان السابقة..... ١١٦
- فهرس المراجع..... ١١٩
- فهرس الموضوعات..... ١٣٣